٢ - الصّداقة فى التراث النثرى العربىّ

obeikandi.com

obeikandl.com

دراسة فى الصّداقة

عنى الفكر العربى فى تراثه بموضوع الصداقة كما عنى بموضوع الحب وبالرغم من أن هناك شبه إجماع على تفضيل الصداقة على الحب ، إلا أن موضوع الحب شغل الفكر العربى أكثر مما شغله موضوع الصداقة فبينما نجد عشرات الكتب التى خصصت لموضوع الحب ، وبينما نجد الأدباء والمتصوفة والفلاسفة قد تناولوا هذا الموضوع كل من جهة نظرة ، فإننا لانكاد نعثر على كتاب خصص لموضوع الصداقة غير كتاب أبى حيان التوحيدى المتوفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى والمعروف باسم كتاب « الأدب والإنشا فى الصداقة والصديق » وهو للأسف كتاب غير مبوّب ، أكثره نقل عن الغير شعرهم ونثرهم وأخبارهم . لهذا تتوارى فيه أصالة المؤلف .

كذلك نجد ابن المقفع (١٠٦-١٤٢هـ/٧٢٤-٧٥٩م) قد خصص المقالة الثانية من كتابة « الأدب الكبير » لموضوع الصداقة ، ونحن نعرف أن كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه إلى العربية يعالج هذا الموضوع فى بعض قصصه ، حتى إن أول أبواب الكتاب وهو باب الأسد والثور – فيه مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء .

وفيما عدا هذا نجد فصولا فى بعض الكتب خصصها أصحابها لدراسة موضوع الصداقة مثل أبى حيان التوحيدى الذى خصص كذلك المقايسة الأخيرة من مقابساته لموضوع الصداقة والحبّ وعنوانه فى الصديق وحقيقة الصداقة وفلسفة العشق والحب .

والمتأمل فى هذه الكتب والفصول يجد أنها إما مجموعة من الآراء لم تلتزم تبويباً معيناً كما فى كتاب الصداقة والصديق ، وفى الفصل الذى خصصه ابن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ/٩٩٤ - ١٠٦٤م) للصداقة فى رسالته ، فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل ، وإما التزمت المنهج المنطقى وجعلت ألوان الصداقة على أساس تبويبات منطقية ، كما نجد لدى كل من ابن مسكويه (المتوفى عام ٤٢١ هـ/١٠٣٠م) فى المقالة الخامسة من كتاب تهذيب الأخلاق وعنوانها فى الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض وأنواع المحبة ، ولدى الموارى (المتوفى ٤٥٠هـ/١٠٥٩م) فى كتابه : أدب الدنيا والدين ، وكذلك الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ/١٠٥٩-١١١١م) فى الفصل الذى عقده فى كتابه الشهير « إحياء علوم الدين » عن الصداقة بعنوان كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق .

وأحياناً ثالثة كان التبويب على أساس اجتماعى مثلما فعل ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ ٨٢٨-٨٨٩م) فى كتاب الأخوان من كتابه عيون الأخبار حيث نجد أبواباً مثل : التلاقى والزيارة ، والوداع ، والعيادة ، والتهانى ، والقرابات ، والهدايا والتعازى ، والاعتذار . . . . ألخ .

كذلك نلاحظ أن الحديث عن الصداقة فى هذه الكتب والفصول يتسع أحياناً بحيث يشمل الحديث عن فن معاملة الناس حتى الأعداء منهم على نحو ما نجد لدى ابن المقفع وقد يمتد فيشمل معاملة الأخوة فى الدين والأقارب والجيران ، بل ومعاملة ما ملكت يمين المسلم من خدم أو عبيد على نحو ما نجد فى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى .

ولما كان موضوع الصداقة - كموضوع الحب - من تلك المواضيع التى تخص البشرية كلها ، فقد وجد فى كثير من الحضارات - بل ربما فيها كلها - مفكرون تعرضوا لها إن لم يكن قد ألفوا فيها الكتب . ولعل من أهم هؤلاء المفكرين - قبل العرب -

أرسطو عند اليونان لاسيما فى الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه « الأخلاق إلى نيقوماخوس » اللذين خصصهما لنظرية الصداقة ، وكذلك شيشرون الكاتب الرومانى .

ولئن لم يكن العرب – فيما يبدو – قد عرفوا ماكتبه شيشرون ، فإن كتاب الأخلاق لأرسطو قد ترجمه أولا حنين بن اسحق عندما أنشأ المأمون دار الحكمة نحو عام ٢١٧هـ كما قام الفارابى (المتوفى عام ٣٣٩/٩٥٠م) بشرحه ، وفى الأندلس نجد بن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ – ١١٩٨ م) قد اعتنق مذهب ارسطو ووضع فيه مؤلفات شتى منها تلخيص كتاب الأخلاق[١]

لهذا كثيراً مانجد اسم أرسطو – إلى جانب فلاسفة اليونان الآخرين – يتردد اسمه واسمهم فيما كتبه العرب عن الصداقة بالإضافة إلى أثر الثقافات الهندية والفارسية . ولهذا أيضاً نجد تلك الكتابات تتفاوت بين النقل والأصالة ، فبينما تجد كاتباً مثل ابن مسكوبه يكاد يعتمد على الكتابات الأجنبية ، نجد كاتباً آخر مثل الغزالى – رغم معرفته بهذه الثقافات – أكثر أصالة فى تفكيره ، ومرد ذلك إلى تشبعه بالروح الإسلامية ، فكأنما يتمثل ماوصله من ثقافات الحضارات الأخرى ليصبها فى بوتقة إيمانه الدينى .

وجها الصداقة :

والصداقة لها وجهان : وجه نسبى ووجه مطلق ، أو وجه تاريخى ووجه ينتمى إلى ذلك الجزء الخالد من طبيعة الإنسان الذى لا يمت للتاريخ بصلة على حد تعبير ألبير كامو.

أما الوجه النسبى فيمكن تلخيصه فى أن الصداقة تختلف باختلاف نظم الحكم

---

(١) أنظر مقدمة أحمد لطفى السيد لترجمته العربية لكتاب الأخلاق إلى نيقوخاس لأرسطو ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩١٤ ، جـ ٢ ، ص ٤٣ – ٤٧ ..

أواختلاف عمر الإنسان أو وضعه الاجتماعى داخل نظام الحكم الواحد ، كما أن النظرة إليها تتلون بالحالة النفسية لمن يتكلم عنها .

ومحاولة الربط بين الصداقة ونظام الحكم ترجع إلى أرسطو ، حين قرر فى كتابه الأخلاق إلى نيقوماخوس أنه فى الأشكال الفاسدة للحكومات كما أن العدل يتضاءل تتضاءل المحبة والصداقة أيضاً. فيوجد القدر الأقل من الصداقة فى أقبح الأشكال السياسية . وعلى ذلك ففى حكومة الطاغية لاتوجد صداقة أو يوجد منها شىء قليل ، لأنه حيث لايكون قدر مشترك بين الرئيس والمرءوسين فلا محبة ممكنة ولا عدل ، ولا رابطة بينهم إلا رابطة الصانع بالآلة أو الروح بالبدن أو السيد بالعبد . والأمر على ضد ذلك فى الديمقراطية ، فإنها أكثر ما تكون انتشاراً لأن فيها كثيراً من الأشياء الشائعة بين الأهالى المدنيين (١) .

كذلك حاول أرسطو أن يميز بين أسس الصداقة فى مختلف مراحل الحياة الإنسانية ، فقرر أن اللذة أساس صداقة الفتيان ، وهى صداقة تنعقد سريعاً وتنقطع سريعاً ، ولكن هذا لايمنع أن أصحابها يريدون أن يقضوا كل الأيام مع من يحبونهم ويعيشوا إلى الأبد لأنه هكذا تحصل الصداقة وهكذا تفهم فى الشباب ، أما المنفعة فهى أساس صداقة الشيوخ (٢) .

وقد نحا ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق هذا النحو فى لتمييز بين أساس الصداقة فى مختلف مراحل عمر الأنسان (٣) .

كذلك ربط أرسطو بين الصداقة وأوضاع الناس الاجتماعية . فقرر تعذر قيام الصداقة فى الأحوال التى تكون فيها المسافة بعيدة جداً بين الأشخاص من جهة الفضيلة

---

(١) الأخلاق إلى نيقوماخوس ، جـ ٢ الباب ١١ .

(٢) الأخلاق إلى نيقوماخوس الكتاب ٨ الباب ٣ .

(٣) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ، المطبعة الوطنية ، القاهرة ، ١٢٩٨هـ ، ص ٢٩ .

والرذيلة (أى كأن يكون أحدهما شريراً والآخر فاضلاً) أو من جهة الثروة أو من أية جهة أخرى . وهذا ظاهر على الأخص جداً فيما يختص بالآلهة لأن لهم علوا غير متناه فى كل نوع من أنواع الخير . ويبنى أرسطو على هذا رأياً فى غاية الطرافة ، وهو أن الإنسان رغم أنه يتمنى الخير لأصدقائه إلا أنه لايتمنى لهم أن يصبحوا آلهة لأنه حينئذ تنقطع صداقتهم ، ولذلك فهو إذاتمنى أعظم الخيرات لصديق فإنما يتمناها له باعتباره إنساناً (١) .

ويمكن أن يشاهد أيضاً شيء مشابه لهذا بالنسبة للملوك ، فإن الإنسان هو أقل منهم فى أمر الثروة إلى حد أنه لا يستطيع حتى أن يريد أن يكون صديقهم ، كما أن الناس الذين لهم مكانة لا يفكرون فى إمكان صيرورتهم أصدقاء لمن هم أرفع منزلة أو أحكم عقلا (١) .

كذلك يقرر أرسطو أن الصداقة بالمنفعة لاتكون خليقة إلا بنفس التجار(٢). كما أن الصداقة بالمنفعة تتولد من الاختلاف مثلا بين الفقير والغنى والجاهل والعالم (٣) .

ونحن نجد اتجاهاً مشابهاً عند أبى حيان التوحيدى فنراه يقول : قال أبو سليمان الصداقة التى تدور بين الرهبة شديدة الاستحالة ، وصاحبها من صاحبه فى غرور ، والزلة فيها غير مأمونة ، وكسرها غير مجبور فأما الملوك فقد جلوا عن الصداقة ولذلك لاتصح لهم أحكامها . . وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم . وأما أصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث فى عير ولا نفير . وأما التجار فكسب الدوانيق سد بينهم وبين كل مروءة وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة وأما أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى . . وأما الكتّاب وأهل

---

(١) الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ك ٨ . ب ٧ .

(٢) نفس المرجع ، ك ٨ ب ٦ .

(٣) نفس المرجع ، ك ٨ ب ٨ .

العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتمارى والتماحك فربما صحت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء . أما اصحاب المذاب والتطفيف فإنهم رجرجة بين الناس لامحاسن لهم فتذكر ولا مساع فتنشر (١)

ويكاد يكون هناك إجماع بين بقية الكتّاب العرب على استحالة الصداقة إذا تفاوتت الأوضاع الاجتماعية حتى ولو كانت هناك صداقة سابقة قبل وجود هذه المسافة الاجتماعية .

فابن المقفع يقول إنه إذا أصبح صديقك ذا سلطة .. رأى أن سلطانه قد زادك له توقيراً أو إجلالا ، غير أن يقدر أن يزيده ودا ولانصحاً . ولاتقدر الأمور فيما بينك وبينه على شيء مما كنت تعرف من أخلاق مستحيلة مع السلطان وربما رأينا الرجل المدل على السلطان بقدمه قد أضر به قدمه (٢)

وابن مسكويه يقول وأما السلاطين فإنهم يظهرون الصداقة على أنهم متفضلون ومحسنون إلى من يصادقهم فليس يدخلون تحت الحد الذى ذكرنا وفى صداقتهم زيادة ونقصان ، والمساواة عزيزة الوجودة عندهم(٣) ولهذا فهو يضع بدل الصداقة علاقات أخرى حيث يقرر أنه يجب أن تكون نسبة الملك إلى رعيته نسبة أبوية ، ونسبة الرعية إلى الملك نسبة بنوية ، بينما نسبة الرعية بعضهم إلى بعض نسبة أخوية(٤) ، ثم يتحدث عن العلاقة بين الإنسان والله بلهجة غير لهجة أرسطو ، نابعة من اختلاف الموقف الدينى لكل من الرجلين ، ورغم أن ابن مسكوبة لايتحدث عن صداقة بين

---

(١) أبو حيان التوحيدى : الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، ص ٤ .

(٢) ابن المقفع : الأدب الكبير والأدب الصغير ، دار الفكر ، مكتبة البيان ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٦٩ .

(٣) تهذيب الأخلاق ، ص ٨٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

الإنسان والله إلا أنه يستبدل المحبة بالصداقة ، فتراه يقول : أما المحبة التى لا تشوبها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات فهى محبة العبد لخالقه . وهذه المحبة تتصل بها الطاعة والتعظيم (١)

أما الغزالى فإنه يجعل من حب الإنسان لله وفى الله ، لا لينال منه علماً أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته ، أعلى الدرجات (٢). ولكن الأمر غير ذلك عند اختلاف الأوضاع الاجتماعية بين الناس . فتراه يقول : وإن قربك سلطان فكن منه على حذالسنان ، فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبى ، وكلمه بما يشتهيه مالم يكن معصية ، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه ، وإن كنت لذلك عنده مستحقاً عنده ، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله سقطة لاتنعش وذلة لا تقال (٣).

* * *

هذا هو الوجه النسبى للصداقة ، لاشك أن الحالة النفسية – من ناحية أخرى – تلون النظرة إليها . ولعل خير مثال لدينا هو ابو حيان التوحيدى الذى يعترف فى أول كتابه « الصداقة والصديق » أنه معدوم الأصدقاء . فهو يقول : ومن العجب أننا كتبنا هذه الحروف على مافى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد . . لأنى فقدت كل مؤمن وصاحب ومرفق ومشفق . إلى أن يقول : أمسيت غريب الحال غريب اللفظ غريب النحلة مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة محتملاً للأذى (٤)

---

(١) المراجع السابق ، ص ٨٥ .

(٢) إحياء علوم الدين ، المطبعة الوهبية ، ١٢٨٢ ، القاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٠ . (٤) الصداقة والصديق ، ص ٥ .

وقد انعكست هذه الحال النفسية على آراء أبى حيان عن الصداقة ، فتراه يبدأ كتابه بقوله : وقيل كل شيء ينبغى أن تثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق (١) ويروى لنا أن فيلسوفاً سئل ذات يوم : من اطول الناس سفراً ؟ فقال : من سافر فى طلب الصديق . وأما عبارة أرسطو القائلة بأن الصديق إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك ، فإن التوحيدى يذكر أنه سمع النوشجانى يعلق عليها قائلا : إن الحد صحيح ولكن المحدود غير موجود ، أى أن تعريف أرسطو للصديق تعريف صحيح ، ولكن مثل هذا الصديق لا وجود له . ذلك لأن كل إنسان مختلف بالضرورة عن الآخر وإذا فرض ووجد شخصان متماثلان فمعنى هذا أن أحدهما يقلّد الآخر ويطيعه ويقتدى به ، وهذا خلاف الصداقة ، لأن هذه العلاقة أقرب إلى أن تكون علاقة العالم بالمتعلم والتابع بالمتبوع . لهذا فإن أرسطو إنما قصد بهذا الحد المبالغة فى الحث على توخى الصديق لصديقه حالا لا يكاد يفصل بينهما ، فى إرادة وإيثار وقصد ومحبة وكراهية ورضا . فهذا التعريف هو غاية مثلى كلما اقتربت منها الصداقة كانت أكثر تحقيقاً .

ثم يستطرد قائلا : وكيف يصبح انطباق هذا التعريف فى عالم الواقع ، والإنسان حتى وهو وحده لايلائم نفسه ولا يوافق أبداً رأيه ، ولعله يترجح وينكفى كل يوم بل فى كل ساعة مراراً كثيرة مثل أبى براقش ، كل لون لونه يتخيل . والإنسان وإن كان واحداً بوجه فأنه كثير بوجه آخر ، فليس هناك شخص دائم الابتسام أو دائم العبوس كريماً دائماً أو بخيلا دائماً .

وهكذا يتضح أن مايوضع بالعقل ويحدّ به لابد أن تكمله المباشرة الحسيّة ، قيل له : إن الحد قد حوى كل هذا لأنه قيل : هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص ، فبالموافقة يكون أحد الصديقين الآخر وبالمخالفة يكون الشخص آخر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

فقال : ليس بجائز أن يكون فى الحد تناقض(١)

وبالرغم من ذلك فإن أباحيان التوحيدى ينطلق من تجربة حية – وإن لم تكن تجربته – للتعرف على الصداقة ، تلك هى الصداقة السعيدة بين الفيلسوف أبى سليمان والقاضى ابن سيار .فهو يسأل أولهما ذات يوم قائلا : إنى أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفســـية وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومواتاة خليقة فمن أين هذا وكيف ؟

فأجابه أبو سليمان : يا ابنى اختلطت ثقتى به بثقته بى ، فاستفدنا طمأنينة وسكوناً لا يرثان على الدهر ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة ، حتى أنا نلتقى كثيراً فى الإرادات . . . والاختبارات والشهوات والطلبات ، وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى وبينه أوكأنى هو فيها أو هو أنا ، وربمـا حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها . . . وقـلّ ما نجتمع إلا ويحدثنى عن أسرار ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى ولا ندت عن صدرى إلى لفظى وذاك للصفاء الذى نتساهمه ، والوفاء الذى نتقاسمه ، والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع إليه(٢)

أما الوجه الآخر للصداقة فيرتبط بتلك العلاقة بعد تصفيتها من هذه الظروف . إنه استقراء للصداقة فى أنضج صورها الممكنة ، وفى أفضل الأجواء ملاءمة لنموها .

---

(١) أبو حيان التوحيدى : المقابسات ، محقق ومشروح بقلم حسن السندوبى ، ١٩٢٩ . المكتبة التجارية ، القاهرة ، ص ٣٥ – ٣٦١ .

(٢) الصداقة ، ص ٣٠ .

ضرورة الصداقة :

فهناك أولا إجماع على أن الصداقة لا غنى عنها للإنسان ، إنها – على حد تعبير أرسطو – تمتد بقدر ما يمتد المجتمع[١] وإذا كان العدل والصداقة أساس المجتمع ، فإنه متى أحب الناس بعضهم بعضاً لم تعد حاجة إلى العدل . غير أنهم مهما عدلوا فإنهم لاغنى لهم عن العدالة[٢] . وهذه الضرورة الاجتماعية ترتبط بضرورة نفسية ، ذلك أن مشاعر المحبة التى تكون الصداقات الحقة للمرء نحو أصدقائه يبدو أنها تستمد أصلها من مشاعر المرء نحو ذاته ، ولهذا فالصديق هو الذى يعيش معك ويتحد وإياك فى الأذواق ، والذى تسره سراؤك وتحزنه أحزانك[٣] . إن صديقنا هو نحن بصورة أخرى[٤] ومتى كان الإنسان محبوباً يكون أقرب إلى أن يكون محترماً ، والاحترام هوما يرغب فيه أكثر الناس[٥] ومتى تطرفت الصداقة أشبهت كثيراً المحبة التى يجدها المرء نحو نفسه[٦].

ولعل أبا حيان التوحيدى كان يشير إلى أرسطو حين تكلم عن الأوائل الذين قالوا بأن الإنسان مدنى بالطبع ، ثم يستطرد قائلا : وبيان هذا أنه لابد من الإعانة والاستعانة لأنه – أى الإنسان – لا يكمل وحده لجميع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه[٧]. والإنسان لايمكن أن يعيش وحده ، فبالضرورة يلزمه أن يعاشر الناس ، ثم بالضرورة يصير له بهذه المعاشرة بعضهم صديقاً ، وبعضهم عدواً ، وبعضهم منافقاً ، وبعضهم نافعاً ، وبعضهم ضاراً[٨]، فالناس أنواع ، منهم من هو كالغذاء الذى يسد رمقك

---

(١) الأخلاق إلى نيقوماخوس : ك ٨ / ب ٩ / ف ١

(٢) المرجع السابق : ك ٨ ، ب ١ ، ق ٦ .

(٣) المرجع السابق : ك ٨ ، ب ٤ ، ف ١ .

(٤) المرجع السابق : ك ٩ ، ب ٤ ، ف ٤ .

(٥) المرجع السابق : ك ٨ ، ب ٨ ، ف ٢ .

(٦) المرجع السابق : ك ٩ ، ب ٤ ، ف ٥

(٧) الصداقة : ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٨) المرجع السابق ص ٤٦ .

ولابد لك منه على كل حال لأنه قوام حياتك وزينة دهرك ، ومنهم من هو كالدواء يحتاج إليه فى الحين بعد الحين على مقدار محدود ، ومنهم من هو كالألم الذى لاينبغى أن تقربه ، فأنه سبب هلكتك[١] .

كذلك يقرر ابن مسكويه حاجة الناس إلى بعضهم ، لأنهم مطبوعون على النقصانات مضطرون إلى تمامها . فهم محتاجون إلى الاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد الذى تجتمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له[٢] . ولما كان الإنسان مدنياً بطبيعته فلا بد أن يكون تمام سعادته الإنسانية عند أصدقائه . ومن كان تمامه عند غيره فمن المحال أن يصل مع الوحدة والتفرد إلى سعادته التامة . فالسعيد إذاً من كتسب الأصدقاء ، واجتهد فى بذل الخيرات لهم ليكتسب بهم مالايقدر أن يكتسبه ، فيلتذ بهم أيام حياته ويلتذون أيضاً به .

ويقتبس ابن مسكويه عن أرسطو قوله : إن الإنسان محتاج إلى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال . فعند سوء الحال يحتاج إلى معونة الأصدقاء ، وعند حسن الحال يحتاج إلى المؤانسة ومن يحسن إليه . إن الملك العظيم يحتاج إلى صديق يصطنعه ويضع إحسانه عنده ، كما إن الفقير يحتاج إلى صديق يصطنعه ويضع عنده المعروف .

كذلك يقتبس عن أرسطو قوله : من أجل فضيلة الصداقة يشارك الناس بعضهم بعضاً ، ويتعاشرون عشرة جميلة ويجتمعون فى الرياضيات والصيد والدعوات[٣] .

تعريف الصديق :

ولفظ الصديق من الناحية اللغوية من الصدق وهو خلاف الكذب ، ومن الصدق

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦ .

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٩ – ٩٠ .

(يفتح الدال) لأنه يقال رمح صدق أى صلب ، وعلى الوجهين الصديق يصدق إذا قال ، ويكون صدَقاً إذا عمل . . وصدقة المرأة وصداقها وصداقتها كله منتزع من الصدق والصدق ، وكذلك الصادق والصديق والصدوق والصدقة والمصدق والمتصدق (١)

والصديق من صدقك عن نفسه ليكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضاً عنك لتكون على مثله (٢) . وسمى الصديق صديقاً بعد ذلك ، والعدو عدوا لعدوه عليك لو ظفر بك (٣) والصديق يكون واحدا وجمعاً ومذكرا ومؤنثاً (٤)

ويقول أبوحيان التوحيدى : قيل لأرسطاطاليس الحكيم معلم الاسكندر من الصديق ؟ قال : إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك . ثم يقول التوحيدى : سئل أبوسليمان عن هذه الكلمة وقيل له فسرها لنا فإنها وإن كانت رشيقة فلسنا نظفر منها بحقيقة . فقال : هذا رجل دقيق الكلام بعيد المرام صحيح المعانى . . وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التى يتصادق المتصادقان بها . ألا ترى أن لهذه الموافقة أولا منه يبتدآنها ، كذلك لها آخر ينتهيان إليه . وأول هذه الموافقة توحدوآخرها وحدة . وكما أن الإنسان واحد بما هو إنسان ، كذلك يصير بصدقه واحداً بما هو صديق ، لأن العادتين تصيران عادة واحدة ، والإرادتين تتحولان إرادة واحدة ، ولا عجب فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر بقوله :

روحه روحى ، وروحى روحه إن يشأ شئت وإن شئت يشأ (٥)

ويرد الماوردى هذا التعريف إلى أصل عربى ، فيقتبسه أولا عن الفيلسوف العربى الكندى (المتوفى عام ٢٦٠هـ/٨٧٣م) ثم يعلق عليه بقوله : ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر رضى الله عنه ، حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضاً ، وكتب له بها كتاباً ،

---

(١) الصداقة ص ٣٣ .
(٢) الصداقة ص ٦٠ .
(٣) الصداقة ص ١٣٩ .
(٤) الصداقة ص ١٢٠ .
(٥) الصداقة ص ٢٤ .

وأشهد فيه ناساً منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضباً إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقال : والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال بل عمر ، لكنه أنا(١)

الصداقة أفضل العلاقات الإنسانية :

وهذا التعريف للصداقة يتيح لنا أن تميزها عن بقية العلاقات الإنسانية الأخرى التى قد تشترك معها فى بعض المظاهر ، كعلاقات العشق والقرابة ، وقد رفع الكتّاب العرب الصداقة إلى أسمى مكانة بحيث فضلوها على أية علاقة أخرى .

فأبو حيان التوحيدى يعلن على لسان أبى سليمان أن الصداقة أفضل من العلاقة لأنها أذهب فى مسالك العقل وأدخل فى باب المروءة وأبعد عن توازى الشهوة وأنزه ن آثار الطبيعة . أما العلاقة فهى مرض ، أو كالمرض ليس للعقل فيها ظل(٢)

والصداقة تقوم على أساس كرم العهد ، وبـذل المال ، وحفظ الذمام ، وإخلاص المودة ، ورعاية الغيب ، وتوفر الشهادة ، ورفض الموجدة ، وكظم الغيظ ، واستعمال الحلم ، ومجانبة الخلاف ، واحتمال الكل ، وبذل المعونة ، وحمل المؤونة ، وطلاقة الوجه ، ولطف اللسان ، وحسن الاستنامة ، والثبات على الثقة ، والصبر على الضراء ، والمشاركة فى البأساء ، والعلاقة وإن كانت تستعير من هذه الأبواب شيئاً فليس ذلك لأنه من عتادها وأساسها ولا مما لا يتم إلا به ، ولكن من أجـل التحسن والتزين . . لأن العاشق والمعشوق .. ليسا من الصديق وإن كانوا يتشابهون ببعض الأخلاق ويتلاقون فى بعض الأحوال (٣)

---

(١) الماوردى : أدب الدين والدنيا : حققه وعلق عليه مصطفى السقا ، ط ٣ ، الحلبى ، القاهرة ١٩٥٥ / ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الصداقة ، ص ٤٠ . (٣) الصداقة ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

قيل لأعرابى : أبالصديق أنت آنس أم بالعشيق ؟ فقال : يا هذا الصديق لكل شيء ، للجد والهزل ، وللقليل والكثير ، ولا عاذل عليه ولا قادح فيه ، وهو روضة العقل وغدير الروح . وأما العشيق فإنما هو للعين وبعض الريبة والعدول عنه من أجله سريع ، وفى الولوع به إفراط من جوى وحد موقوف دونه ، فأين هذا من ذاك[١]

وإنك تفزع بحديث المعشوق إلى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق[٢]

وقد أكد أبوحيان هذه التفرقة فى المقابسة الأخيرة من مقابساته حين ذكر أن الحسن بن وهب (المولود ببغداد ١٨٦هـ والمتوفى بالشام حوالى ٢٤٧هـ) قال : غزل الصداقة أرق من غزل العلاقة . ثم يعلق على ذلك بقوله : فهذا فاضل قد أحس كمال الصداقة لأنها مؤثرة بالعقل ومجراة على أحكامه ومحمولة على رسومه ، فأما العلاقة فهى من قبيل الحس والطبيعة عليها أغلب وآثارها فيها أبق .

وكما تفضل الصداقة العشق فإنها تفضل القرابة . فذوو القرابة تحفزهم أغراض كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس وهذه الأغراض لاتعترى الإنسان فى البعيد النسب والبلد واللغة والصناعة والخلق[٣]

قيل لأعرابى من خلفت وراءك قال : خلفت والداً ووالدة وأختاً وابن عم وبنت عم وعشيقاً وصديقاً . قيل له : فكيف حنينك إليهم ؟ قال : أشد حنين . قيل : فصفه لنا . قال أما حنينى إلى والدى فللتعزز به ، فإن الوالد عضد وركن يعاذ به ويؤوى إليه ، وأما نزاعى إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها ولدعائها الذى لا يعرج إلى الله مثله . وأما شوقى إلى الأخت فللصيانة لها والتروح إليها ، وأما شوقى إلى ابن العم فللمكاتفة له والانتصار به ، وأما ابنة العم فلأنها لحم وعظم ، أتمنى أن أشيل عليها بالرقة

---

(١) الصداقة ، ص ٥٠ .
(٢) الصداقة ، ص ٧٩ .
(٣) الصداقة ص ٥٢ .

أو أصلها ببعض من يكون لها كفوا ويكون لنا إلفا . وأما صبابتى بالعشيق فذاك شىء أجده بالنظرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض وفى المجون جواد راكض . وأما الصديق فوجدى به فوق شوقى إلى كل من نعته لك لأنى أباثه بما أجل أبى عنه وأجبأ عن أمى فيه ، وأطويه عن أختى خجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفاً من حسد يفقأ مابينى وبينه ، واكنى عن بنت عمى بغيرها لأنها شقيقة ابن العم . . فاما العشيقة فقصارى معها أن أشوب لها صدقاً بكذب ، وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر ، ونصيب من زيادة ، وتحفة من حديث . وكل هؤلاء مع شرف موقفهم منى وانتسابهم إلى دون الصديق الذى حريمى له مباح وسارحى عنده مراح ، أرى الدنيا بعينيه إذا رنوت ، وأجد فاتنى عنده إذا دنوت ، إذا عززت له ذل لى ، وإذا ذللت له عزّلى ، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة ، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة لا يتوارى عنى إلا حافظاً للغيب ، ولا يتراءى لى إلا ساترا للعيب[1]

كما يقتبس أبوحيان قول هرمس : القرابة تحتاج إلى المودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة[2]

وقد سبق أن فضل ابن المقفع الصديق حتى على الزوجة حين قال : إن صديقك ليس كالمملوك الذى تعتقه متى شئت ، أو كالمرأة التى تطلقها إذا شئت ، ولكنه عرضك ومروءتك فإن أنت قطعْته حتى إن كنت معذوراً – كان ذلك بمنزلة الخيانة ، وإن أنت صبرت عليه غير راض عنه كان ذلك عيباً ونقيصة . فالاتئاد الاتئاد والتثبت التثبت[3] .

وبذلك أفرد صفة الاستمرار لعلاقة الصداقة ، بينما يمكن لبقية العلاقات الأخرى أن تكون علاقات مؤقتة .

---

(١) الصداقة ص ٦١ – ٦٢ .

(٢) الصداقة ص ٩٣ .

(٣) الأدب الكبير ص ٦٦ .

كذلك سبق لإخوان الصفا فى رسالتهم الخامسة والأربعين أن فضلوا الصداقة على جميع العلاقات الأخرى حتى الابن الذى من ظهرك ، والأخ الذى من صلب أبيك وزوجتك . . لأن هؤلاء يحبونك من أجل منفعة تصل منك إليهم ، ويريدونك من أجل مضرة تدفعها عنهم ، فإذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا فى غيرك وخذلوك فأما هذا الأخ فليس يريدك إلا لأنه يرى ويعتقد أنك إياه وهو إياك ، نفس واحدة فى جسدين متقابلين (١)

وثمة تفرقة أيضاً بين المعارف والأصدقاء . فالمعارف يجمعهم الجنس المقتبس من الحيوان ، وينظمهم النوع المقتبس من الإنسان ، ويؤلفهم بعد ذلك البلد أو الجوار أو الصناعة أو النسب ، غير أن الحسد والتنافس ما يلبث أن يدب بينهم ويقطع علاقتهم (٢) وتلك هى الصحبة التى رأى الغزالى فيما بعد أنها تقع بالاتفاق ، وفيها يدب الحسد والتنافس بين أصحابها ويقطع علاقتهم (٣) .

اختيار الصديق :

والصديق قبل اختياره يجب أن يمر بامتحان عسير . فابن مسكويه يطالبنا أن نسأل عنه .

** كيف كان فى صباه مع والديه ومع إخوته وعشيرته ، فإن كان صالحاً معهم فارج الصلاح منه وإلا فابعد عنه .

** ثم اعرف بعدذلك سيرته مع أصدقائه قبلك فأضفها إلى سيرته مع إخوته وآبائه .

---

(١) رسائل إخوان الصفا ، عنى بتصحيحه خير الدين الزركلى / المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، الرسالة الخامسة والأربعون ، جـ ٤ ، ص ١٠٢ .

(٢) الصداقة ، ص ٢٤ . (٣) إحياء علوم الدين ، ص ١٣٣ .

** ثم تتبع أمره فى شكر من يجب عليه شكره أو كفره النعمة .

** ثم انظر ميله إلى الراحات ، وتباطئه عن الحركة التى فيها أدنى نصيب ، فإن هذا خلق ردئ ، ويتبعه الميل إلى اللذات فيكون سبباً للتقاعد عما يجب عليه من الحقوق .

** ثم أنظر محبته للذهب والفضة واستهانته أوحرصه على جمعها . فإن كثيراً من المتعاشرين يتظاهرون بالمحبة ويتهادون ويتناصحون ، فإذا وقعت بينهم معاملة مالية وقعت العداوة بينهم .

** ثم انظر محبته للرياسة ، فمن أحب الغلبة لا ينصفك فى المودة ولا يرضى منك بمثل مايعطيك ، ويحمله الخيلاء والتيه على الاستهانة باصدقائه وطلب الترفع عليهم

** ثم أنظر هل هو ممن يستهزئ بالغناء واللحون وضروب اللهو وسماع المجون والمضاحك ، فإن كان كذلك فما أشغله عن مساعدات إخوانه ومواساتهم ، وما أشد هربه عن مكافأة بإحسان واحتمال النصب .

فإن وجدته بريئاً من هذه الخلال فلتحتفظ عليه ولترغب فيه .

ثم يبدى ابن مسكويه رأيه فى عدد الأصدقاء بقوله : ولتكتف بواحد إن وجد فإن الكمال عزيز (١) .

ولقد حاول إخوان الصفا أن يقدموا نصائح مشابهة عند اختيار الصديق ، فطالبوا بالتعرف على أخباره وتجربة أخلاقه والسؤال عن مذهبه واعتقاده ، ليعلم هل هو يصلح للصداقة أم لا ، لأن فى الناس أقواماً طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ، ومذاهبهم مختلفة جائرة ، والعادات الرديئة تقوى الأخلاق الرديئة والعادات الجميلة تقوى الأخلاق المحمودة .

فينبغى إذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخاً أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير

---

(١) تهذيب الأخلاق ، ص ٩١ – ٩٢ .

والأرض الطيبة التربة للزرع والغرس ، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشرى المماليك والأمتعة التى يشترونها .

وأعلم أن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلا ، ولا تعتز بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر فى مرارة عاقبتها وأعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ويدلس عليك بهيئة الموافق ويظهر لك المحبة وخلافها فى صدره وضميره .

واعلم أن أعمال الناس فى ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التى طبعوا عليها ، وبحسب آرائهم التى اعتقدوها . فإذا رأيت الرجل معجباً صلفاً ، أو نكداً لجوجاً ، أو فظاً غليظاً ، أو مماحكاً مماريا ، أو حسوداً حقوداً ، أو منافقاً مرائياً ، أو بخيلاً شحيحاً ، أو جباناً مهيناً ، أو مكاراً غداراً ، أو متكبراً جباراً ، أو حريصاً شرها ، أو كان زرياً لنظراته ، مستحقراً لأقرانه والناس ، ذاما لهم ، أو متكلا على حوله وقوته ، فاعلم أنه لا يصلح للصداقة .

واعلم أن الصداقة لاتتم بين مختلفين بالطبع ، لأن الضدين لا يجتمعان ، مثال ذلك السخى والبخيل ، فإنهما متضادان فى الطبع فلا تتم بينهما الصداقة .

ثم ينتهى إخوان الصفا كما انتهى ابن مسكويه إلى ندرة هؤلاء الأصدقاء فيصفونهم بأنهم أعز من الكبريت الأحمر (١) .

ويكرر الماوردى التحذير من رفاق الملق والنفاق ولاجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه . واعرف محبته من عينيه لا من لسانه(٢) .

ولما كان الصاحب يدل على الصاحب كما تدل الدخان على النار ، فلزم على المرء أن يتحرز من دخلاء أهل السوء، وبجانب أهل الريب ، ليكون موفور العرض سليم

---

(١) رسائل إخوان الصفا ، جـ ٤ ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٢) أدب الدين والدنيا ص ١٥٠ .

الغيب فلا يلوم بملامة غيره (١).

ولهذا وجب توافر أربع خصال فى الصديق

** عقل موفور يهدى إلى راشد الأمور ، فإن الحمق لاتثبت معه مودة ، ولا تدوم لصاحبه استقامة .

** الدين الواقف بصاحبه على الخيرات ، فإن تارك الدين عدو لنفسه ، فكيف يرجى منه مودة غيره(٢).

** أن يكون محمود الأخلاق ، مرضى الفعال ، مؤثراً للخير ، آمراً به ، كارهاً للشر ، ناهياً عنه . فإن مودة الشرير تكسب العداء ، وتفسد الأخلاق ولا خير فى مودةتجلب عداوة ، وتورث مذمة ، فإن المتبوع تابع صاحبه .

** أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبه ، ورغبة فى مؤاخاته ، فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة ، وأمد لأسباب المصافاة(٣).

فإذا استكملت هذه الخصال فى إنسان وجب إخاؤه ، وبحسب وفورها فيهيجب أن يكون الميل إليه والثقة به ، وبحسب مايرى من غلبة إحداها عليه يجعل مستعملا فى الخلق الغالب عليه . فإن الإخوان طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ، ولكل واحد منهم حال ، يختص بها فى المشاركة وثلمةيسدها فى المؤازرة والمظافرة ، وليس تتفق أحـــوال جميعهم على حد واحد قال بعض الحكماء : الرجال كالشجر ، شرابه واحد وثمره مختلف(٤).

أما الغزالى فإنه يرى أن الخصال التى تشترط فى الصديق إنما تكون بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة ، والصحبة يطلب منها فوائد من نوعين :

---

(١) المرجع السابق ص ١٥١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥٢ .
(٣) أدب الدين ص ١٥٣ .
(٤) المرجع السابق ١٥٤ .

** فوائد دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه ، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة .

** فوائد دينية ويجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة ، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت ، ومنها الاستعانة فى المهمات فيكون عدة فى المصائب وقوة فى الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة .

فينبغى فيمن تؤثر صحبته خمس خصال : أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا .

أما العقل : فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير فى صحبة الأحمق .

أما حسن الخلق : فقد جمعه علقمة العطاردى فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يابنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن تعدت بك مؤنه مانك . أصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدها . أصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . أصحب من إذا قلت صدق قولك ، وإن حاولتما أمراً أمرك ، وإن تنازعتما آثرك . . قال ابن اكثم ، قال المأمون ، فأين هذا ، فقيل : أتدرى لم اوصاه بذلك ؟ قال : لا ،قال : لأنه أراد ألا يصحب أحداً .

وقال بعض الأدباء : لاتصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك فيكون معك فى النوائب ، ويؤثرك بالرغائب ، وينشر حسنتك ويطوى سيئتك . فان لم تجده فلا تصحب إلا نفسك . .

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلاّ أحد رجلين . . رجل تتعلم منه شيئاً فى أمر

دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئاً فى أمر دينه فيقبل منك ، والثالث فاهرب منه

وقال بعضهم الناس أربعة : فواحد حلو كله . فلا يشبع منه ، وآخر مر كله . فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة . فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة . فخذ منه وقت الحاجة فقط . . .

أما الفاسق المصر على الفسق . فلا فائدة فى صحبته . فمن لايخاف الله لاتؤمن غائلته ، ولا يوثق بصداقته ، بل يتغير بتغير الأغراض .

أما المبتدع : ففى صحبته خطر سراية البدعة ، وتعدى شؤمها إليه .

أما الحريص على الدنيا : فصحبته سم قاتل ، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء ، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدرى صاحبه . فمجالسة الحريص على الدنيا تحرّك الحرص ، ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا (١) .

عدم الإكثار من الأصدقاء :

وقد أدت هذه الدقة فى اختيار الأصدقاء إلى نتيجة طبيعيّة هى ندرة الأصدقاء وعدم الإكثار منهم . فقد رأينا ابن مسكويه ينصح بقوله : ولتكتف بواحد منهم إن وجد ، فإن الكمال عزيز . كما رأينا إخوان الصفا يصفونهم بأنهم أعز من الكبريت الأحمر .

وقد سبق لأرسطو أن بحث هذه النقطة فى كتابه الأخلاق فقال إنه ليس ممكنا أن يكون المرء محبوباً من أناس كثيرين بصداقة كاملة كذلك ليس ممكناً حب أناس كثيرين فى آن واحد(٢) . ويورد أرسطو أسباب ذلك :

أولا من الصعب على المرء أن يدفع المقابل ويعترف بجميل جميع صنوف المعروف

---

(١) إحياء علوم الدين : جـ ٢ ، ص ١٤١ – ١٤٤ .

(٢) الأخلاق إلى نيقوماخوس : جـ ٢ ، ك ٨ ، ب ٦ ، ف ٢ .

متى كان ما يسدى إليه كثيرا وقد لا تكفى الحياة بأسرها لهذا الغرض ، إن أصدقاء أكثر عددا مما يلزم للحاجات العادية للحياة لا فائدة منهم ، بل قد يصيرون عائقاً للسعادة

ثانياً : إن العيشة المشتركة هى العلامة الأكيدة للصداقة ، ولكن من غير الممكن أن يعيش الإنسان مع لفيف من الأشخاص يقسم شخصه بينهم . زد على هذا أن جميع هؤلاء الأشخاص يجب أن يكونوا أصدقاء بعضهم لبعض ما دام يلزم بعضهم أن يقضى أيامه مع البعض الآخر ، وليست هذه بالحيرة الصغرى متى كثر الأصدقاء .

ثالثاً : كذلك يكون من العسير جداً على أشخاص عديدين إلى هذا القدر أن يستطيع المرء لحسابه الخاص مشاطرتهم الأفراح والأحزان ، بل قد يتوقع المصادفات السيئة فيجب على المرء أن يفرح مع واحد ويحزن مع آخر فى آن واحد

ويخلص أرسطو إلى القول بأن الناس الذين لهم أصدقاء كثيرون ، والذين هم مخلصون للجميع يعتبرون أنهم ليسوا أصدقاء لأحد(١) .

وينتهى ابن مسكويه إلى رأى مشابه حين يقول : من كثر أصدقاؤه لم يف بحقوقه واضطر إلى الإغضاء عن بعض مايجب عليه والتقصير فى بعض ، وربما ترادفت عليه أحوال متضادة ، أعنى أن تدعوه مساعدة صديق إلى أن يسر بسروره ، ومساعدة آخر أن يغتم يغمه وأن يسعى بسعى واحد ، ويقعد بقعود آخر ، مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة(٢) .

ويتجه الماوردى هذا الإتجاه نفسه بعد أن يعرض للرأيين المختلفين فيقول : وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الاخوان . فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويداً ، وأكثر تعاوناً وتفقدا . ومنهم من يرى أن الإقلال منهم

---

(١) المرجع السابق : ب ١٠ .

(٢) تهذيب الأخلاق ، ص ٩٢ .

أولى لأنهم أخف أثقالاً وكلفاً ، وأقل تنازعاً وخلفاً . قال عمرو بن العاص : من كثر إخوانه كثر غرماؤه(١) .

ولا يقف الماوردى موقف المحايد من الرأيين ، بل إنه ما يلبث أن يرجح الرأى الثانى فيقول : « إذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الإخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة إخوانه لأنه يوم مناه يطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أضداده من ذوى الحمق والنقص لأن الخيار فى كل جنس هو الأقل فلذلك قل وفور العقل والفضل(٢) » .

ويضيف إخوان الصفا فى رسائلهم ملاحظة طريفة إذ يقول قائلهم : واعلم أن مثل إتخاذ الأصدقاء والإخوان كمثل اكتساب المال والذخائر ، وذلك أن من الناس من يُفْنى عمره فى طلب جمع المال فلا يقدر عليه ، ومنهم من يكون مرزوقاً من كثرة المال ، ومنهم من يحسن أن يكسب المال ولكن لا يحسن أن يحفظه . فهكذا حكم اتخاذ الإخوان والاصدقاء . ومنهم من لا يحسن حفظهم ومراعاة أمورهم فيسيرون إلى العداوة بعد الصداقة ، وإلى المباغضة بعد المودة(٣).

شروط دوام الصداقة وحق الصديق على الصديق :

وهذه الرغبة فى عدم الإكثار من الأصدقاء لا هدف لها إذن إلا الحرص على دوام الصداقة ، ولهذا رأينا كيف فضلها هؤلاء المفكرون على علاقات أخرى كالزواج على أساس أن تلك العلاقات يمكن أن تكون مؤقتة أما الصداقة فينبغى أن تستمر ، فإذا اتضح أنك أخطأت فى اختيار الصديق وهجرته كان ذلك بمنزلة الخيانة كما يقول ابن المقفع ، وإن صبرت عليه غير راض كأن ذلك عيباً ونقيصة .

---

(١) أدب الدنيا والدين ، ص ١٥٥ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(٣) رسائل إخوان الصفا ، جـ ٤ ، ص ١١٠ – ١١١ .

لهذا نجد ابن مسكويه يحدد الشروط التى تدوم معها الصداقة .

** فلا ينبغى أن يحملك طلب الفضائل ممن تصادقه على تتبع صغار عيوبه فتبقى خلوا من الصديق ، بل يجب أن تغضى عن المعايب اليسيرة التى لايسلم من مثلها البشر ، وتنظر ماتجده فى نفسك من عيب فتحتمل مثله من غيرك .

** يجب عليك متى حصل لك صديق أن تكثر مراعانه ، وتبالغ فى تفقده ، ولا تستهن باليسير من حقه عند مهم يعرض له أو حادث يحدث به . فأما فى أوقات الرخاء فينبغى أن تلقاه بالوجه الطلق ، والخلق الرحب ، وأن تظهر له فى عينك وحركاتك وفى هشاشتك وارتياحك عند مشاهدته إياك ما يزداد به فى كل يوم وكل حال ثقة بمودتك وسكوناً إلى غيبك . ويرى السرور فى جميع أعضائك التى يظهر السرور فيها إذا لقيك . فإن التخفى الشديد عند طلعة الصديق لا يخفى ثم ينبغى أن تفعل مثل ذلك بمن تعلم أنه يؤثره ويحبه من صديق أو ولد أو تابع أو حاشية ، وتثنى عليهم من غير إسراف يخرج بك إلى الملق الذى يمقتك عليه ، ويظهر له منك تكلف فيه . إنما يتم ذلك إذا توخيت الصدق فى كل ما تثنى به عليه . والزم هذه الطريقة حتى لا يقع منك توان فيها بوجه من الوجوه ، وفى حال من الأحوال . فإن ذلك يجلب المحبة الخالصة ويكسب الثقة التامة . ويفيدك محبة الغرباء ومن لامعرفة لك به .

** وكما أن الحمام إذا ألف بيوتاً ، وآنس لمجالسنا وطاف بها ، يجلب لنا أشكاله وأمثاله ، فكذلك حال الإنسان ، إذا عرفنا واختلط بنا اختلاط الراغب فينا الآنس بنا ، بل يزيد على الحيوان الناطق بحسن الوصف وجميل الثناء ونشر المحاسن .

** وأعلم أن مشاركة الصديق فى السراء وإن كانت واجبة عليك ، فإن مشاركته فى الضراء أوجب وموقعها عنده أعظم . وانظر عند ذلك . . كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك . . ولا تنتظر به أن يسألك تصريحاً أو تعريضاً ، بل اطلع على قلبه واسبق إلى مافى نفسه ، وشاركه مالحقه ليخفف عنه .

** وإن بلغت مرتبة من السلطان والغنى فاغمس إخوانك فيها من غير امتنان ولا تطاول ، وإن رأيت من بعضهم نبواً عنك أو نقصاناً مماعهدته . . فاختلط به واجتذبه إليك فإنك إن أنفت من ذلك أو تداخلك شئ من الكبر والصلف عليهم انتقص حبل المودة ، ومع ذلك فلست تأمن أن يزولوا عنك فتستحى منهم وتضطر إلى قطيعتهم حتى لا تنظر إليهم .

** ثم أحذر المماراة مع صديقك خاصة وإن كان واجباً أن تحذره مع كل أحد فإن مماراة الصديق تقتلع المودة من أصلها لأنها سبب الاختلاف . وهناك من يتعمد فى المحافل مماراة صديقه . وليس يفعل ذلك عند خلوته به ، وإنما يفعله حيث يظن أنه أدق نظراً أو أحضر حجة وأغزر مادة وأحد قريحة .

** ثم احذر النصيحة وسماعها . ذلك أن الأشرار يدخلون بين الأخبار فى صورة النصحاء . فيوهمونهم النصيحة ، وينقلون إليهم فى عرض الأحاديث اللذيذة أخبار أصدقائهم ممزقة ممومة .

** ثم أحذر فى صديقك إن كنت تعرف شيئاً لايعرفه أن تبخل به عليه فيرى منك أنك تحب الاستبداد دونه والاستئثار عليه . فإن أهل العلم لايرى بعضهم فى بعض ما يراه أهل الدنيا بينهم . وذلك أن متاع الدنيا قليل ، فإذا تزاحم عليه قوم نقص حظ كل واحد من حظ الآخر . فأما العلم فإنه بالضد ليس أحد ينتقص منه ما يأخذه غيره منه ، بل إنه يتضاعف . فإذا بخل صاحب علم بعلمه فإنما ذلك لأحوال كلها قبيحة . وهى إما أن يكون قليل البضاعة فهو يخاف أن يفنى ما عنده أو يرد عليه ما لا يعرفه فيزول تشرفه عند الجهال . وإما أن يكون مكتسباً به فهو يخشى أن يضيق مكسبه به وإمّا أن يكون حسودا . والحسود بعيد كل البعد عن كل فضيلة .

** وإن عرفت فى صديقك عيباً فوافقه عليه موافقة لطيفه ليس فيها غلظة . فإن الطبيب الرقيق ربما بلغ بالدواء ما يبلغه بغيره بالبشق والقطع والكى ، بل ربما توصل

بالغذاء إلى الشفاء وأكتفى به عن المعالجة بالدواء . ولكن لا تغضى عما تعرفه فى صديقك ، فإن فى ذلك خيانة منك ومسامحة فيما يعود ضرره عليه .

ثم حافظ على هذه الشروط بالمداومة عليها لتبقى المودة على حال واحدة ، وليس هذا الشرط خاصاً بالمودة بل هو مطرد فى مايخصك أعني ركوبك وملبوسك ومنزلك متى لم تراعها مراعاة متصلة فسدت وانتقضت . . ووجوه الضرر التى تدخل عليك وانتقاض مودته كثيرة وعظيمة وذلك أنه ينقلب عدواً وتتحول منافعه مضاراً ، فلا تأمن غوائله وعداواته مع عدمك الرغائب والمنافع به ، وينقطع رجاؤك فيما لا تجدله خلفاً ، ولا تستفيد عنه عوضاً ، ولا يسد مسده شيء ، وإذا راعيت شروطه وحافظت عليها بالمداومة أمنت جميع ذلك .

عدوك من صديقك مستفاد فلا تكثرن من الصحاب
فإن الدواء أكثر ما تـراه يكون من الطعام أوالشراب [1]

والماوردى يتفق مع ابن مسكويه فى أنه لا ينبغى أن يزهد الإنسان فى صديقه لخلق أوخلقين ينكرهما منه إذا رضى عن سائر أخلاقه لأن اليسير مغفور والكمال معوز .

وقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : معاتبة الأخ خير من نقده ومن لك بأخيك كله ؟ وقال بعض الحكماء : طلب الإنصاف من قلة الإنصاف . . وقال بعض البلغاء : لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته . . عيب خفى تحيط به كثرة فضائله . فإنك لن تجد مابقيت مهذباً لايكون فيه عيب ولايقع ذنب . فاعتبر بنفسك بعد ، ألا تراها بعين الرضا ؟ فإن فى اعتبارك بها ما يؤنسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب .

وليس ينقص هذا القول ما وصفناه من اختباره . . فإذا وجدت فيه نفوراً ذات لحظة أو هفا معك هفوة فاذكر أن الإنسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص

(١) تهذيب الأخلاق ، ص ٩٢ ، ٩٦ .

النفوس به ، ولا يكون ذلك من عداوة لها ، ولا ملل منها ، إلا إذا تحققت تغير صديقك وتيقنت تنكره (١) .

وأول حق للصديق على الصديق اعتقاد مودته ، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير محرم ، ثم نصحه في السر والعلانية ، ثم تخفيف الأثقال عنه ، ثم معاونته فيما يناله من نكبة فإن مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم .

وينبغي تجنب الإفراط في محبته ، فإن الإفراط داع إلى التقصير ولأن تكون الحال بينهما نامية ، أولى من أن تكون متناهية . وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما . أي ترفق وأقتصد في محبتك وعداوتك فإن الأيام تتقلب وقد يصير الصديق عدواً أو العدو صديقاً (٢)

ومن حق الإخاء أن تستوي حالتاهما في المغيب والمشهد ، فإن فضل المشهد على المغيب لؤم ، وفضل المغيب على المشيد كرم ، واستواؤهما حفاظ .

وهكذا يقصد التوسط في زيارته ، غير مقلل ولا مكثر ، فإن تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال(٣) .

وكثرة العتاب سبب للقطيعة ، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق . وقد قيل : علة المعاداة قلة المبالاة ، بل تتوسط حالياً تركه وعتابه . فيتسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة ، فإن المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا لم يلبث معهما فتور ، ولم يبق معهما وجد (٤) .

أما الغزالي فإنه لا يعتبر الصداقة أفضل من علاقة الزواج ، ولكنه يشبه عقد الأخوة بعقد الزواج . وكما يقتضي عقد الزواج حقوقاً يجب الوفاء بها ، كذلك يقتضي

---

(١) أدب الدنيا والدين ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

عقد الأخوة حقوقاً يجب الوفاء بها . ويُحدد الغزالى هذه الحقوق : فى المال والنفس واللسان والقلب بالعفو والدعاء و بالتخفيف وترك التكلف والتكليف .

أولاً – فى المال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى . . وهذا معناه المساهمة فى السراء والضراء . . والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب ، أدناها أن تنزله منزلة عبدك أوخادمك ، فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة من حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال ، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير فى حق الأخوة .

الثانية – أن تنزله منزلة نفسك وترضى مشاركته إياك فى مالك .

الثالثة : (وهى العليا) أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المحبين .

فإن لم تصادف نفسك فى رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد فى الباطن ، وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها فى العقل والدين .. وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين .

ثانياً – فى الإعانة بالنفس : وهذه أيضاً لها درجات أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ، ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول العفة .. وكان فى السلف الصالح من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ، ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم فى حياته .

وينبغى أن تكون غير غافل عن أحوال أخيك كما لا تغفل عن أحوال نفسك وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة بل تقوم بحاجته كأنك لا تدرى أنك قمت بها ، ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها ، بل تتقلد منه بقبوله سعيك فى حقه وقيامك بأمره ، ولا ينبغى أن تقتصر على قضاء الحاجة ، بل تجتهد فى البداية بالإكرام

فى الزيادة والإيثار ، والتقديم على الأقارب والولد .

ثالثاً – فى اللسان بالسكوت مرة : فيسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته وحضرته والسؤال عن أحواله وإذا رآه فى طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره وموارده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه .

وليسكت عن أسراره التى بثها إليه ، ولا يبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف منها شيئا ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذى سبك من بلغك . نعم لا ينبغى أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه ، فإن السرور به أولا يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل ، واخفاء ذلك من الحسد . وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا ، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، ولم يجد رخصة فى السكوت ، فإذ ذاك لا يبالى بكراهته ، فإن ذلك إحسان إليه فى التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة فى الظاهر . أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله فهو من الغيبة وذلك حرام فى حق كل مسلم ويزجره عنه أمران :

أحدهما : أنك لا تخلو من العيوب ، فهون على نفسك ما تراه من أخيك ، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه فى تلك الخصلة الواحدة ، كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب ..

الأمر الثانى أنك تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت من الخلق كافة ، ولن تجد من تصاحبه أصلا ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن وله مساوئ ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى .

وكما يجب السكوت بلسانك عن مساوئ أخيك يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن ، فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهى عنه أيضاً ، وحده أن لا تحمل فعلة على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف بتعين ومشاهدة

فلا يمكنك ألا تعلمه ، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن .

قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال : أنا قبره . وقد قيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقيل : إن قلب الأحمق فى فيه ، ولسان العاقل فى قلبه . أى لا يستطيع الأحمق إخفاء ما فى نفسه فيبديه من حيث لا يدرى .. وأفشى بعضهم سراً له إلى أخيه ثم قال : حفظت لى فقال : بل نسيت ..

رابعاً – فى اللسان بالنطق مرة : وكما تقتضى الأخوّة السكوت عن المكاره تقتضى أيضا النطق بالمحاسن ، بل هو أخص بالأخوّة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم . والسكوت معناه كف الأذى . فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده فى أحواله التى يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض ، وإظهار شغل القلب بسببه .. واستبطاء العافية عنه . وكذا جملة أحواله التى يكرهها ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها وجملة أحواله التى يمر بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له فى السرور . فمعنى الأخوة المساهمة فى السراء والضراء . وقد قال عليه السلام : إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره . وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة الحب .

من ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه إليه فى غيبته وحضوره . قال رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولا .. وتوسع له فى المجلس .. وتدعوه بأحب أسمائه إليه .

ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصفيفه وجميع ما يفرح به ، وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه . وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد .

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك ، بل على نيته وإن لم يتم ذلك .

وأعظم من ذلك تأثيراً فى جلب المحبة الذب عنه فى غيبته ، مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة ، وتبكيت المتعنت ، وتغليظ القول عليه ، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ، منفر للقلب ، وتقصير فى حق الأخوة .

ومن ذلك التعليم والنصيحة ، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك ، وإرشاده إلى كل ما ينفعه فى الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة . ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لا يطلع عليه أحد ، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة ، وإذ قال صلى الله عليه وسلم : المؤمن مرآة المؤمن ، أى يرى فيه ما لا يرى من نفسه ، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ، ولو انفرد ولم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة

والفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء ، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مـدار ، وإن أغضبت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن .

ولا بد من التلطف فى النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدى إلى الإيحاش ، فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه ، وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه ، فالسكوت عنه أولى .. وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه .

أما ما يتعلق بتقصيره فى حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامى عنه . والتعرض لذلك ليس من النصح فى شىء . نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب فى السر خير من القطيعة . والتعرض به خير من التصريح والمعاتبة خير من المشاغبة والاحتمال خير من الكل .

خامساً – العفو عن الزلات والهفوات :

هفوة الصديق لا تخلو :

إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية .

أو فى حقك بتقصيره فى الأخوة .

وأما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية أو الإصرار عليها ، فعليك التلطف فى نصحه بما يقوم أوده ، ويجمع شمله ، ويعود إلى الصلاح والورع حاله ، فإن لم تقدر وبقى مصرًا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى أدائه حق مودته أو مقاطعته . ويميل الغزالى إلى الطريقة الأولى قائلا إنها ألطف وافقه ، وإن كانت الطريقة الأخيرة أحسن وأسلم فأما كونه ألطف فلما فيه من الرفعة والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة عقد يتزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال . فينبغى أن يراقب ويراعى ولا يهمل بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التى ألمت به .

فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان ، وهذا من أشد النوائب ، والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحى من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل فيحرص حياء منه . فالإنسان يبغض العمل ولا يبغض صاحبه . وأخوّة الدين أوكد من أخوّة القرابة ، ولذلك قيل لحكيم أيما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقاً لى .

فالتفريق بين الأحباب من محاب الشيطان ، كما أن مقارفة العصيان من محابسه فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغى أن يضاف إليه الثانى .

أما زلته فى حقه بما يوجب إيحاشه فلا خلاف فى أن الأولى العفو والاحتمال . فقد قيل ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرًا فان لم يقبله قلبك فرد اللوم على

نفسك فتقول لقلبك : ما أقساك يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك . فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغى ألا تغضب إن قدرت . ولكن ذلك لا يمكن . وقد قال الشافعى رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان فلا تكن حمارا ولا شيطانا . قال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة . وقال آخر : ما شتمت أحداً قط لأنه إن شتمنى كريم فأنا أحق من غفرها له أو لئيم فلا أجعل عرضى له غرضا . ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا أو صادقا فاقبل عذره . قال بعضهم : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة . وقال عمر رضى الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا ، وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

سادساً : الدعاء للأخ :

فى حياته وبعد مماته بكل ما يحب لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه فإن دعاءك له دعاء لنفسك .

سابعاً – الوفاء والإخلاص :

ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه . فإن الحب إنما يراد للآخرة فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، ومن الوفاء للأخ مراعاة أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه وكان بشر يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه من يؤنسه ، وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم ، وعون على الدين . وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بنى ، لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك ، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك ، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولى أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير . واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ

فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء له المخالفة .

ثامناً – التخفيف وترك التكليف :

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضونه منه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد اتعبهم ، ومن لم يقتض منهم فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا .

وتمام التخفيف يطوى بساط التكليف حتى لا يستحى منه فيما لا يستحى من نفسه ؛ قال على عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك . ومن أحوجك إلى مداراة أو ألجأك إلى اعتذار ؛ وقال آخر : لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ، ويعتذر إليك إذا أسأت ، ويحمل عنك مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه . ويعلق الغزالى على هذا القول بقوله : وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس ، وليس الأمر كذلك ، بل ينبغى أن يؤاخى كل متدين عاقل ، ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط .

وقال الجنيد : اعلم أن الناس ثلاث : رجل تنتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به ولكن لا تنتفع به ، ورجل لا تقدر أيضاً على أن تنفعه وتتضرر به ، وهو الأحمق أو السيء الخلق . فهذا الثالث ينبغى أن تتجنبه . فأما الثانى فلا تتجنبه لأنك تنتفع فى الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به . وقد قال بعضهم : صَحِبْتُ الناس خمسين سنة فما وقع بينى وبينهم خلاف ، فإنى كنت معهم على نفسى . وقد قيـــل : من سقطت كلفته دامت ألفته ، ومن خفت مؤنته دامت مودته .

ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور المرء إخوانه فى كل ما يقصده ، ويقبل

إشارتهم . فقد قال تعالى : وشاورهم فى الأمر ، وينبغى ألا يخفى عنهم شيئاً من أسراره .

وعليك أن تصغى إلى إخوانك بجميع حواسك .

أما البصر فأن تنظر إليهم نظرة مودة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم فى وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك .

وأما السمع فأن تسمع كلامهم تلذذا بسماعه ومصدقا به ومظهراً للاستبشار به ، ولا تقطع حديثهم عليهم بمراده ولا منازعة ومداخلة واعتراض . فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم ، وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون .

وأما اللسان فمن ذلك ألا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما اليدان فإنه لا يقبضهما عن معاونتهم فى كل ما يتعاطى باليد .

وأما الرجلان فأن يمشى بهما وراءهم مشى الأتباع لا مشى المتبوعين ، ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ، ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه . ويقوم لهم إذا أقبلوا ، ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعا حيث يقعد .

مقارنة بالدراسات المعاصرة :

هذا عرض سريع أرجو أن يعطى فكرة عن جانب إنسانى من جوانب الفكر فى التراث العربى . ونحن إذا قارنا هذه الكتابات بالدراسات المعاصرة عن الصداقة — مثل دراسة أندريه موروا فى كتابه فن الحياة — لوجدنا تشابها كبيراً . وإذا كان أندريه موروا قد تعرض لموضوع الصداقة بين النساء ، وأثر زواجهن على مثل هذه الصداقات ، أو موضوع إمكان قيام صداقة بين رجل وامرأة مع توارى الحافز الجنسى — وهى موضوعات لم يتعرض لها الفكر العربى ولا اليونانى من قبله — فإنما مرد ذلك إلى أن طبيعة الحياة فى الحضارة الغربية المعاصرة تثير مثل هذه الموضوعات .

وهناك نوع آخر من الدراسات المعاصرة يتميز بمنهجه التجريبى ، فى مقابل تلك الدراسات النظرية التأملية التى قامت على أساس ملاحظة أصحابها لأنفسهم ولطبيعة العلاقات الاجتماعية من حياتهم ، تلك هى الدراسات المتصلة بعلم النفس الاجتماعى . فهى بالإضافة إلى اهتمامها بالجانب النظرى لهذه الموضوعات ، تهتم بالجانب التجريبى الذى ينأى عن التعميم ويعلن عما وصل إليه من نتائج فى حدود التجربة الزمنية والمكانية والاجتماعية والشخصية . ويحاول تفسير أو تعليل هذه النتائج .

فمثلا تبين من البحوث التى أجريت على عدد كبير من التلاميذ إنه فى أكثر المظاهر شيوعاً فى الحالات السوية بين المراهقين تكون الصداقات الوثيقة على أساسين :

(ا) مع أفراد فى مرحلة العمر ذاتها .

(ب) مع أفراد من نفس شق المراهقين ذكوراً إذا كان ذكراً ، وأنثى إن كان أنثى ، وهذه الحقيقة تبدو واضحة فى فترة المراهقة المبكرة .

والدالة السيكلوجية للأساس الأول ، هو تدعيم موقف المراهق إزاء اليافعين الذين اضطربت علاقته بهم . وقد تكون له دلالة أخرى : فهو يرى نماذج تعانى مثل ما يعانى من مشكلات وتكافح مثل ما يكافح من عقبات ، فيحذو حذوها ويستمد منها ما يقوى شعوره باختلافه عن اليافعين المحيطين به .

أما الأساس الثانى ، فقد يكون نتيجة مباشرة للهيئة الاجتماعية التى تفرق تفرقة حادة بين الذكورة والأنوثة . ويكون اتخاذ المراهق أصدقاءه من شقه إحدى المحاولات التى يبذلها للارتباط بقيم البيئة ، بعد أن اختلت علاقته بها اختلالا أثار حصره واضطرابه[١] .

وعندما طلب إلى هؤلاء المراهقين كتابة مقالات عن الصداقة ، وردت فى مقالاتهم عبارات لها دلالتها الواضحة ؛ فقد وصفوا الصديق بأنه (الذى تستطيع أن تثق فيه)

---

(١) د . مصطفى سويف : الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(والذى يظاهرك فى ساعة الخطر) و (الذى يمكن الاعتماد عليه) و (الذى لا يتركك فى الشدة و (الذى تستطيع أن تلجأ إليه دائماً فى طلب النصح والمعونة)(١).

وهذا الضرب من الصداقة من شأنه بالإضافة إلى تقوية قطب الفردية فى المراهق تقوية قطب الاجتماعية أيضا ، بما يتجه من تجارب التعاطف ، والمساعدة المتبادلة ، والتضحية فى سبيل الصديق(٢).

ومن دراسة المذكرات التى كانت تدونها مراهقتان انتهى أحد هؤلاء العلماء إلى تصنيف الزميلات اللاتى يحطن بالمراهقة على النحو التالى :

١ – الموثوق بها : وهى لا تفارقها وتبيح لنفسها أن تحدثها فى جميع مسائلها الشخصية .

٢ – المقربة : صديقة يكثر الاتصال بها ولكن الحديث معها يكون غالباً فى الأمور التافهة لا عن المسائل الشخصية .

٣ – المألوفة : تراها كثيراً ، ولكن لا تشعر نحوها بالكثير من الدفء العاطفى .

٤ – الصاحبة : شخصية معروفة فحسب .

٥ – صاحبة إيجابية من خلال الجماعة : شخصية تعمل معها فى جماعة ما ، ولكن لا تعرف عنها شيئا أكثر من ذلك .

٦ – صاحبة سلبية من خلال الجماعة : شخصية تحضر اجتماعات لكنها لا تقوم فيها بدور إيجابى .

٧ – المتفرجة : شخصية تعرفها اسما ولكنها لا تتكلم معك (٣)

هذا نموذج لما تتسم به هذه الدراسات من حذر علمى شديد ، ونجد مثالا مطبقاً

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ نقل عن :
Richards on, J.E. and others : Adolescence, London, K.P. 1951 P. 396

(٢) الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى ، ص ٢٣٧ .

(٣) المرجع السابق – ٢٤٤ نقلا عن :
Hurlock, E. Adolescent Development, New York, NCG raw Hill Co. ed 1949, p. 168.

على بيئتنا فى محاولة صديقنا الدكتور مصطفى سويف عندما قام ببحثه التجريبى فى ظاهرة الصداقة عند المراهقين واليافعين ، فنبه إلى حدود بحثه بسبب طبيعة وسائله التى تتطلب ممن يجرى بحثه بينهم معرفتهم بالقراءة والكتابة وتتطلب فئات تستطيع أن تلحق أبناءها بالمدارس الثانوية والمعاهد حيث يمكن الاتصال بهم – فاعتبر ما وصل إليه عينة ممثلة لأبناء الطبقة الوسطى فحسب(١).

وبعبارة أخرى فإن الوجه النسبى للصداقة يتضخم هنا على حساب الوجه المطلق

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٨ .

obeikandl.com

آراء فى الصّداقة

بعض آراء ابن المقفع فى الصداقة

خصص ابن المقفع[1] جزءًا من كتابه « الادب الكبير » لموضوع الصداقة . ونحن نعرف أن كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه إلى العربية يعالج هذا الموضوع فى بعض قصصه ، حتى إن أول أبواب الكتاب وهو : باب الأسد والثور فيه بيان مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء .

ويرى البعض أن كتاب الأدب الكبير منقول أيضاً كله عن الفرس كما ذهب إلى ذلك الباقلانى فى كتابه الإعجاز ، أو للنقل فيه صبغة واضحة كما يرى البعض الآخر(١) .

والمقالة التى كتبها ابن المقفع فى « الأدب الكبير » عن الأصدقاء أقرب إلى أن تكون مجموعة من النصائح فى طريقة معاملة الناس بما فيهم الأعداء ، من أن تكون تناولا لتلك العلاقة الخاصة بين الصديق والصديق .

من بين هذه النصائح تحذير المرء انتحاله رأى غيره ، لأن ذلك مسخطة للصديق ، وأن فيه مع ذلك عاراً وسخفاً ، بل يجب أن تنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت . بل إنه ينصح أن تكون كريماً مع صديقك إذا انتحل هو من كلامك ورأيك .

---

(١) ابن المقفع : الأدب الكبير ، حققه حسن نائل المرصفى ، مصطفى محمد ، القاهرة ١٣٣١ - هـ . المقدمة . ص ٥ .

وليعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول :

ولا تخلطن بالجد هزلا ، ولا بالهزل جدا . فإنك إن خلطت بالجد هزلا هجنته ، وإن خلطت بالهزل جدا كدرته .

غير أن هناك موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأى وظهرت على الأقران : وذلك أن يتوردك متورد بالسفه والغضب وسوء اللفظِ ، فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذراع، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق .

ولا تخف إذا خالط صديقك عدوك ، لأنه أحد رجلين ، إن كان رجلا من إخوان الثقة فمخالطة عدوك لشر يكفه عنك ، أو لعورة يسترها منك ، أو غائبة يطلع عليها الله ... وإن كانَ رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟

واستح أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل مصرحاً أو معرضاً ... وإن آنست من نفسك فضلا فتحرج أن تذكره أو تبديه . واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك فى قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل ، فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعى .

وإذا رأيت رجلا يحدث حديثاً قد علمته ، أو يخبر خبراً قد سمعته ، فلا تشاركه فيه ولا تتعقبن عليه ، حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته ، فإن فى ذلك خفة ، وشحًّا ، وسوء أدب ، وسخفاً .

وليعرف إخوانك والعامة أنك (إن استطعت) إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل .

وعلى العاقل أن يظهر بمظهرين : مظهر أمام العامة ، فلا يلقونك إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً ، ومظهر أمام الخاصة الثقات من أصدقائك ، فتلقاهم بذات صدرك وتقضى إليهم بمضمون حديثك وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم .

وأهل هذه الطبقة قليل حقًّا لأن ذا الرأى لا يدخل أحداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والتكشف والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد .

والصديق يشارك أخاه فيما ابتلى به : إما بالمواساة فتشاركه فى البلية ، وإما بالخذلان فتحتمل العار .

وذلِّلْ نفسك بالصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ، واعلم أن الصبر صبران : صبر المرء على ما يكره ، وصبره عما يحب . واعلم أن اللئام أصبر أجساداً وأن الكرام أصبر نفوسا .

والسخاء نوعان : سخاوة الرجل بما فى يديه ، وسخاوته عما فى أيدى الناس .

أما كيف تنجو من أن تحسد الآخرين فيكون دلك بأن تأخذ عمن يكون بصحبتك ما هو خير منك فيه ، فإن كان أفضل منك فى العلم فتقتبس منه علمه أو أفضل فى القوة فيدفع عنك بقوته ، أو أفضل فى المال فتفيد من ماله .

واعلم أن من عدوك من يعمل فى هلاكك ، ومنهم من يعمل فى مصالحتك ، ومنهم من يعمل فى البعد منك ، فاعرفهم على منازلهم . ومن أقوى القوة لك على عدوك أن تحصى على نفسك العيوب والعورات كما تحصيها على عدوك . وتنظر عند كل عيب تراه أو تسمعه لأحد من الناس . هل قارنت ذلك العيب أو ما شاكله ؟ أو سلمت منه .

ولا تقابل السفيه بسفه مثله ، وإلا كان معناه أنك راض عن سلوكه ، ولهذا حذوت مثاله . وإذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر فى أيهما أقرب إلى لهواك فخالفه ، فإن أكثر الصواب فى خلاف الهوى .

وليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم ، وليكن افتقارك إليهم فى لين كلمتك لهم ، وحسن بشرك بهم ، وليكن استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك وبقاء عزك .

ولا تجالسن امرأ بغير طريقته فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم ، والجانى بالفقه ،

والعي بالبيان ، لم تزد على أن تضيع علمك وتؤذى جليسك بحملك عليه ثقل مالا يعرف ، وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعمى الذى لا يفقه عنه ..

وإذا أشار عليك صاحبك برأى ، ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه ديناً ، ولا تلزمه لوماً وعزلا بأن تقول : أنت فعلت هذا بى وأنت أمرتنى ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك فى شيء بعدها . فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة .

فإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه ، فبدا صوابك فلا تمن به ، ولا تكثر من ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تلمه عليه إن كان قد استبان فى تركه ضرر بأن تقول : ألم أقل لك : افعل هذا ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .

وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام . ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى ينقضى حديثه وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول .

واعلم – فيما يتكلم به صاحبك – أن ما يهجن صواب ما يأتى به ويذهب بطعمه وبهجتهه ويزرى (أى يعيب) به فى قبوله عجلتك بذلك وقطعك حديث الرجل قبل أن يفضى إليك بذات نفسه .

وأخيراً يصف ابن المقفع أخلاق الصديق المثالى فيقول :

« إنى مخبرك عن صاحب لى ، كان من أعظم الناس فى عينى وكان رأسى . ما عظَّمه فى عينى صغر الدنيا فى عينيه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، لا يقول ما لا يعلم ، ولا ينازع فيما يعلم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة .

كان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذَّ الناطقين .

كان يُرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جدّ الجد فهو الليث عادياً .

كان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشترك فى مراء (الممارى هو الذى يريد أن يتعلم من صاحبه ، ولا يرجو أن يتعلم منه صاحبه) ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً .

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره .

وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء .

وكان لا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة .

وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط ولا يتشهى ولا يتشكى .

وكان لا ينتقم على الولىّ ولا يعدل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت – ولن تطيق – ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع ، واعلم أن خير طبقات أهل الدنيا طبقة أصفها لك من لم ترتفع عن الوضيع ولم تتضع عن الرفيع . »

* * *

ومن الغريب أن ابن المقفع صاحب هذه النصائح فى معاملة السلطان والناس قد انتهت حياته نهاية سيئة ، لأنه لم يلتزم فى حياته بكثير مما نصح به غيره . فقد جاءت فى ترجمته بوفيات الأعيان لابن خلكان أنه كان يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد ابن المهلب أمير البصرة وينال من عرضه . كما ذكر الهيثم بن عدى أنه كان يستخف بسفيان كثيراً .

من ذلك أن سفيان قال يوماً : ما ندمت على سكوت قط فقال ابن المقفع : الخرس زين لك فكيف تندم عليه ؟ وبذلك أوغر صدر سفيان عليه .

وكان عبد الله بن العباس قد خرج على ابن أخيه المنصور ، فأرسل إليه المنصور جيشاً انتصر عليه ، وهرب عبد الله بن على إلى أخويه سليمان وعيسى فاستقر عندهما ، فتوسطا له عند المنصور فقبل شفاعتهما فيه ، واتفقوا على أن يكتب له أماناً ، فلما أتيا البصرة قالا لعبد الله بن المقفع اكتب أنت ، وبالغ فى التأكيد ، كيلا يقتله المنصور .

فكتب ابن المقفع الأمان وشدّد فيه حتى قال فى جملة فصوله ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن على فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار والمسلمون فى حلٍّ من بيعته .

ومعنى هذا أن ابن المقفع كما أنه لم يلتزم نصائحه فى ألفاظه ، لم يلتزمها أيضاً ولا استفاد منها فى كتابته ، مما أوغر عليه صدر المنصور فأمر بقتله شر قتلة سنة ١٤٢ أو سنة ١٤٥ هـ .

فلسفة الصداقة عند ابن مسكويه :

يخصص ابن مسكويه المقالة الخامسة من كتابه تهذيب الأخلاق لموضوع الصداقة ، ولئن كان كتاب الأدب الكبير لابن المقفع يصور تأثر الكتابات العربية بالثقافة الفارسية ، فإن كتاب تهذيب الأخلاق يصور تأثر تلك الكتابات بالثقافات التى ترجمت مؤلفاتها ولا سيما الثقافة اليونانية . ذلك أن حركة ترجمة التراث العلمى اليونانى والهندى والفارسى قد بدأت فى عهد أبى جعفر المنصور عام ١٣٦ هـ وبلغت أوجها فى عهد الرشيد ١٧٠ – ١٩٣ هـ ثم المأمون من ١٩٨ – ٢١٨ هـ .. ويقرر مسكويه فى كتابه أنه قرأ كثيراً من هذه الترجمات وتأثر بها ، فلقد تأثر مسكويه فى كتابه هذا بكتاب الأخلاق لنيقوماخوس ، وكتاب النفس ، ثم بكتاب المقولات لأرسطو ، كما تأثر بكتاب الأخلاق ، وكتاب التشريح ، وغيرهما من كتب جالينوس ، ثم بكتب أبقراط فى الأمراض الحادة والأخلاط وطبيعة الإنسان ، كما تأثر بمعاصريه من العلماء كأبى حيان وغيره . وفى

الكتاب يظهر أثر الثقافة الفارسية والهندية فى القصص التى يوردها أحياناً عن كليلة ودمنة وغيره من الكتب المترجمة . فالكتاب يشهد باطلاع ضخم وعميق لمؤلفه .

فمما يأخذه ابن مسكويه عن أرسطو تقسيمه المحبة على أساس أن مقاصد الناس فى مطالبهم ثلاثة ، هى : اللذة والخير والنافع . لهذا فإنه يمكن تقسيم علاقات الناس ببعضهم على النحو التالى :

ما ينعقد سريعاً وينحل سريعاً : وهى المحبة التى سببها اللذة ، لأن اللذة سريعة التغير .

ما ينعقد سريعاً وينحل بطيئاً : وهى المحبة التى سببها الخير

ما ينعقد بطيئاً وينحل سريعاً : وهى المحبة التى سببها النافع

ما ينعقد بطيئاً وينحل بطيئاً : وهى المحبة التى تتركب من هذه جميعاً .

والمحبة هى التى تقع بين الناس وتتميز أنها تكون بإرادة وروية .

أما الألفة فهى التى تقع بين الحيوانات غير الناطقة[١] .

أما الميل الطبيعى إلى المراكز التى تخصها فهى توجد فيما لا نفوس له كالأحجار وأمثالها .

والمحبة يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين .

أما الصداقة – وهى المودة – فهى أخص من المحبة لأنها لا يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين .

أما العشق – وهو إفراط المحبة – فهو أخص من المودة لأنه لا يقع إلا بين اثنين .

---

(١) د . حسن شحاته سعفان : تهذيب الأخلاق ، مجلة تراث الإنسانية ، مجلد ٣ ، عدد ١ القاهرة ٥ يناير ٦٥ – انظر كذلك : صلاح الدين السلجوقى : أثر الإمام الغزالى فى الأخلاق – من كتاب أبوحامد الغزالى فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، المجلس الأعلى للفنون ، القاهرة ، ٦٢ ، ص ٧٩ حيث يقول إن سبعين بالمائة من كتاب تهذيب الأخلاق ترجمة واختصار من الأخلاق النيقوماخية ، اللهم إلا جزءا ضئيلا أخذه من ترجمة عثمان الدمشقى الذى كان يعرف اللسان اليونانى ، ترجمه من بعض آثار أفلاطون ، وإلا جزءاً يسيراً فى خاتمة الباب .

وهكذا جعل ابن مسكويه الصداقة وسطاً بين المحبة والعشق على أساس عددى .

والعشق لا يكون بسبب المنفعة ولا فيما تدخل فيه المنفعة ، أى لا يكون فى النوعين الأخيرين من أنواع المحبة ، إنما يقع لحب اللذة بإفراط ، ولحب الخير بإفراط ، وأولهما مذموم ، وثانيهما محمود .

أما الصداقة فتحدث :

إما لأجل اللذة ، وهذا يقع بين الأحداث . فهم يتصادقون سريعا ويتقاطعون سريعاً .

وإما للمنفعة ، وهذا يقع بين المشايخ ومن كان فى مثل طباعهم .

وإما للخير ، وهذا يقع بين الأخيار .

وهو فى هذا التقسيم يتبع رأى أرسطو فى كتابه الأخلاق .

ولما كان الخير شيئاً ثابتاً غير متغير صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة .

وفيما خلا المحبة الإلهية يمكن للمتحابين أن تنعقد محبتهمامعاً وأن تنحل معاً ، وأن تبقى من جانب وتنحل من جانب .

وإذا اختلفت أسباب المحبة كانت أسرع تحلّلا ، مثال ذلك أن تكون محبة أحد المتحابين لأجل المنفعة ومحبة الآخر لأجل اللذة ، كما يحدث بين المغنى والمستمع . فالمغنى يحب المستمع لأجل المنفعة ، والمستمع يحب المغنى لأجل اللذة . والمحبة بين الرئيس والمرءوس ، والغنى والفقير ، تختلف أسبابها بالنسبة لكل طرف من الطرفين ، ولأن كل واحد ينتظر من المكافأة عند الآخر ما لا يجده ، عنده يقع فساد فى النيات بينهما ، ثم استبطاء ، ثم ملامات ، ويزيل ذلك طلب العدالة ورضى كل واحد بما يستحق من الآخر .

أما الصداقة فإنها لا تكون للذة خارجية ولا لمنفعة . بل لقصد الخير والتماس الفضيلة . فإذا أحب أحدهم الآخر لهذه الأسباب لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ، ونصح بعضهم

بعضاً وتلاقوا بالعدالة والتساوى فى إرادة الخير . ولهذا عرف الصديق بأنه آخر هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص .

ومحبة الوالد للولد والولد للوالد مختلفة ، وأسبابها أيضاً مختلفة ، إلا أنه وإن كان هناك اختلاف بين الطرفين هنا ، فهناك اتفاق ذاتى بينهما . ذلك أن الوالد يرى فى ولده أنه هو هو ، وأنه نسـخ صورته ، ولهذا يحب الوالد لولده جميع ما يجده لنفسه ، ويسعى فى تأديبه وتكميله بكل ما فاته فى نفسه طول عمره ، ولا يشق عليه أن يقال : ولدك أفضل منك ، لأنه كما أنه لا يشق على الإنسان أن يقال له إنك الآن أفضل مما كنت بل يسره ذلك ، كذلك تكون حاله إذا قيل له فى ولده مثل ذلك .

وتفضل محبة الوالد على محبة الولد بأنه الفاعل له ، وأنه يعرفه منذ أول كونه يستبشر به وهو جنين ، ثم تزداد محبته له مع التربية ، ويتأكد سروره ببغيته أنه باق به صورة وإن فنى بجسمه مادة .

أما محبة الولد للوالد فإنها تنقص عن هذه المرتبة ، بأن الولد مفعول وعلى مقدار عقله واستبصاره فى الأمور يكون تعظيمه لوالديه .

أما محبة الإخوة بعضهم بعضاً فبسبب كونهم ونشئهم واحد بعينه .

أما المحبة التى لا تشوبها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات ، فهى محبة العبد لخالقه . وهذه المحبة تتصل بها الطاعة والتعظيم ، ويتلوها ويقرب منها محبة الوالدين وإكرامهما وطاعتهما . وتتوسط بينهما محبة الحكماء لأنهم الأسباب فى وجودنا الحقيقى وهى تربية نفوسنا ، بينما الوالدون سبب وجودنا الحسى .

وما يكتسب عن طريق التعب تكون المحبة له أشد ، والضن به أكثر ، فمن وصل إلى المال بغير تعب لم يكترث به ولم يشح عليه وبذله فى غير موضعه ، كما يفعل الوارث ومن يجرى مجراهم ، وأما من وصل إليه بتعب ، وسافر فى طلبه ، وشق بجمعه ، فإنه لا محالة يكون شديد الضن به والمحبة له . ولهذه العلة صارت الأم أكثر محبة للولد

من الأب ، ويعرض لها من الحنين والولد أضعاف ما يعرض للأب .

وبهذا النوع من المحبة يحب الشاعر شعره ويعجب به أكثر من إعجاب غيره ، وكل فاعل فعل يتعب به فهو يحب فعله .

الصداقة عند الماوردى :

هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى ، فقيه من فقهاء الشافعية ، ومن رجال السياسة البارزين فى الدولة العباسية . له كثير من المؤلفات الدينية والسياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية . ومنهجه فى كتابه « أدب الدنيا والدين » أنه « يتصور الموضوع الأخلاقى تصوراً عاماً ، ويضع له الحدود والفصول والمسائل ، ويستخلص الأسس والقواعد ، ثم يحشو هذه الأبواب والفصول بكلامه وبحثه الخاص ، ثم يأتى بالنصوص من الأحاديث والحكم وما إليها ، مؤيدا بها صحة ما يذهب إليه من فكرة ، وصنيعه هذا شبيه بصنيع الفقهاء الذين يقسمون البحث فى الموضوع الفقهى إلى أبواب وفصول ومسائل ، ويستشهدون أحياناً بالأدلة المؤيدة والحجج الناطقة . فطريقة المؤلف وسط بين طريق أهل الرواية من المحدثين واللغويين والأدباء ، وطريق الباحثين النظريين ، الذين لا يعولون فى بحوثهم على النصوص مطلقاً ، واعتمادهم فى البحث قائم على المنطق والتجربة والمشاهدة (١).

أما مصادر استشهاداته فقد حددها المؤلف فى مقدمته بقوله إنه يستشهد « من كتاب الله جلّ اسمه بما يقتضيه ، ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه » ، ثم متبعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء . ثم يعلل هذا المنحى بقوله و« لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة ، وتسأم الفن الواحد » (٢)

(١) أدب الدين والدنيا : مقدمة المحقق ، ص ١٢ – ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، مقدمة المؤلف ، ص ١ .

وهو يخصص فصلاً فى كتابه عن المؤاخاة والمودة يبدأه بقوله : « إن حال الإنسان فى الدنيا تصلح بثلاثة أشياء .

نفس مطيعة إلى رشدها ، منتهية عن غيها .

وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها .

ومادة كافية تسكن نفس الإنسان إليها ، ويستقيم أوده بها .

أما الألفة الجامعة فلأن الإنسان مقصود بالأذية ، محسود بالنعمة ، فإذا لم يكن إلفاً مألوفاً ، تخطفته أيدى حاسديه ، وتحكمت فيه أهواء أعاديه . فلم تسلم له نعمة ، ولم تصف له مودة . فإذا كان إلفاً مألوفاً ، وانتصر بالألفة على أعاديه وامتنع عن حاسديه سلمت نعمته منهم ، وصفت مودته عنهم .

وأسباب الألفة خمسة وهى الدين ، والنسب ، والمصاهرة ، والمودة ، والبر ، والمؤاخاة بالمودة من أسباب الألفة لأنها تكسب بصادق الميل إخلاصاً ومصافاة ، وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا أعلى مراتب الالفة .

والمؤاخاة فى الناس قد تكون على وجهين .

أحدهما أخوة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار .

والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار .

أما المكتسبة بالاتفاق فأسبابها :

التجانس :

و بالتجانس تحدث المواصلة بين المتجانسين ، وهى المرتبة الثانية من مراتب الإخاء ، ثم يحدث عن المواصلة مرتبة ثالثة هى المؤانسة وسببها الانبساط .

وعن المؤانسة مرتبة رابعة هى المصافاة ، وسببها خلوص النية .

ومرتبة خامسة وهى المودة وسببها الثقة ، وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال

الإخاء وما قبلها أسباب تعود إليها ، فإن اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة .

ثم يحدث عن المودة مرتبة سادسة ، وهى المحبة وسببها الاستحسان .

فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت مرتبة سابعة وهى الإعظام

وإن كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت مرتبة ثامنة ، وهى العشق وسببه الطمع وهذه المرتبة آخر الرتب المعدودة وليس لما جاوزها مرتبة مقدرة ولا حالة محدودة ، لأنها قد تؤدى إلى ممازجة النفوس وإن تميزت ذواتها ، وتفضى إلى مخالطة الأرواح وإن تفارقت أجسادها ، وهذه الحالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها .

وأما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وقد يكون الداعى إليها من وجهين : رغبة ، وفاقة .

فأما الرغبة فهى أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ، ويتوسم بجميل يدعو إلى اصطفائه . وهذه الحالة أقوى من التى بعدها ، لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها .. وإن كان من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع ، وإنما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع ، وبعضها بالتطبع الجارى بالمادة مجرى الطبع .

أما الفاقة فهى افتقار الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته .. قال ابن المعتز : القريب بعداوته بعيد ، والبعيد بمودته قريب .

أقسام الداخلين فى عدد الإخوان :

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل فى عدد الإخوان أربعة أقسام : منهم من يعين ويستعين ، ومنهم من لا يعين ولا يستعين ، ومنهم من يستعين ولا يعين ، ومنهم من يعين ولا يستعين .

فأما المعين والمستعين ، فهو يؤدى ما عليه ويستوفى ماله ، كالمقترض ، يسعف

عند الحاجة ويـرد عند الاستغناء . وهو مشكور فى معونته ، ومعذور فى استعانته ، فهذا أعدل الإخوان .

وأما من لا يعين ولا يستعين ، فهومتروك ، قد منع خيره وقمع شره ، فهولا صديق يرجى ولا عدو يخشى .. إذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة ، يروقك حسنها ، ويخونك نفعها ، فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره . وإن كان باللوم أجدر . غير أن فساد الوقت وتغيّر أهله ، يوجب شكر من كان شره مقطوعاً وإن كان خيره ممنوعاً .

وأما من يستعين ولا يعين ، فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن . وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم ، ومن شحهم لا من غذائهم .

وأما من يعين ولا يستعين ، فهو كريم الطبع مشكور الصنع ، وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء ، فلا يرى ثقيلا فى نائبه ، ولا يقعد عن نهضة فى معونة . فهذا أشرف الإخوان نفساً وأكرمهم طبعاً .

من فصل فى الإخوان والصداقة والنصيحة لابن حزم[1]

* استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بشأنك .
* العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فإما تصفو وإما تطير .
* من طوى من إخوانك سرّه الذى يعنيك دونك ، اَخَوْنُ لك ممن أفشى سرك ، لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط ، ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك .

---

(١) من رسالة ابن حزم فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل ، مضمنته فى « رسائل ابن حزم » تحقيق الدكتور إحسان عباس ، مكتبة الخانجى والمثنى ، مصر ، ١٩٥٤ ، وروجعت على طبعة بعنوان : فلسفة الأخلاق لابن حزم ، طبعت على نفقة على افندى الخطاب ، الاسكندرية .

* لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزى .
* لا تزهد فيمن يرغب فيك ، فإنه باب من أبواب الظلم ، وترك مقارضة الإحسان ، وهذا قبيح .
* اكتم سر كل من وثق بك ، ولا تفش إلى أحد من إخوانك ، ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك طيّه بوجه من الوجوه ، وإن كان أخص الناس بك ، وعليك أن تنى لجميع من ائتمنك ، ولا تأتمن أحداً على شىء من أمرك تشفق عليه إلا عن ضرورة لا بد منها . وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه ، وإن لم يعمدك بالرغبة ، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل ، ولا تبت إلا على أن أول من أحسنت إليه مضر بك وساع عليك ، فإن ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون – لشدة الحسد – كل من أحسن إليهم إذا رأوه فى أعلى من أحوالهم ، وعامل كل أحد فى الأنس أجمل معاملة ، وأضمر السلو عنه إن حلت بعض الآفات التى تأتى مع مرور الأيام والليالى ، تعش سالماً ومستريحاً .
* لا تنصح على شرط القبول ، ولا تشفع على شرط الإجابة ، ولا تهب على شرط الإثابة ، لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف .
* حد الصداقة الذى يدور على طرفى محدوده هو أن يكون المرء يسوؤه ما ساء الآخر ، ويسره ما سره ، فما سفل عن هذا فليس صديقاً ، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق .

وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه ، وإنما الذى يدخل فى باب الإضافة فهو المصادق ، فهذا يقتضى فعلاً من فاعلين ، إذ قد يجب الإنسان من يبغضه وأكثر ذلك فى الآباء مع الأبناء ، وفى الإخوة من إخوتهم ، وبين الأزواج وفيمن

صارت محبته عشقاً ، وليس كل صديق ناصحاً ، ولكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه .

* حد النصيحة هو أن يسوء المرء ما ضر الآخر – ساءه ذلك أم سره – فهذا شرط فى النصيحة زائد على شرط الصداقة ، وأقصى غايات الصداقة التى لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وماله بغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك .

ولولا أنى شاهدت مظفراً ومباركاً صاحبى بلنسية ، لقدرت أن هذا الخلق معدوم فى زماننا ولكنى ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة ، مع تأتى الأحوال الموجبة للفرقة غيرهما .

* ليس شئ من الفضائل أشبه بالرذائل ، من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء ، فإن ذلك فضيلة تامة مركبة ، لأنهم لا يكسبون إلا بالحلم والجود ، والصبر والوفاء ، والاستطلاع والمشاركة ، والعفة وحب الدفاع ، وتعليم العلم وبكل حالة محمودة .

ولسنا نعنى الأتباع أيام الدنيا ، لانحرافهم عند انحراف الدنيا ، ولا نعنى المصادقين لبعض الأطماع ، ولا المتنادمين على الخمر والمجمعين على المعاصى والقبائح ونيل أغراض الناس والفضول وما لا فائدة فيه ، فليس هؤلاء أصدقاء – لنيل بعضهم من بعض وانحرافهم عند فقدهم تلك الرذائل التى جمعتهم – وإنما نعنى إخوان الصفاء لغير معنى إلا الله عز وجل ، وإذا حصلت عيوب الاستكثار منهم وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض . إما بموت ، أو فراق ، أو غدر من يغدر منهم ، كان السرور بهم لا يفى بالحزن الممض من أجلهم وليس فى الرذائل شئ أشبه بالفضائل من محبة المدح ، لأنه فى الوجه سخف ممن يرضى به ، إلا أنه قد ينتفع به فى الإقصار عن الشر والتزيُّدِ من الخير ، وفى أن يرغب فى ذلك الخلق الممدوح ممن سمعه .

* بعض أنواع النصيحة تميزه من النميمة ، لأن من سمع إنساناً يذم آخر ، أو يكيد ،

ظالماً له ، فكتم ذلك عن المنقول فيه والمكيد ، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ، إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربما قد ولّد العداوة على الدوام ، والتخلص فى هذا الباب صعب ، إلا على ذوى العقول .

* النصيحة مرتان فالأولى فرض وديانة ، والثانية تنبيه وتذكير ، وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع .
* إذا نصحت فانصح سرًّا لا جهراً ، أو بتعريض لا بتصريح ، إلا لمن لا يفهم فلا بد من التصريح له .
* لا تنصح على شرط القبول منك ، فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح ، وطالب طاعة ، لا مؤدى حق ديانة وأخوة ، وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ، ولكن حكم الأمير مع رعيته والسيد مع عبيده .
* لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك ، فإن طلبت أكثر فأنت ظالم
* لا تكسب إلا على شرط الفقد ، ولا تتول إلا على شرط العزلة ، وإلا فأنت مضر بنفسك ، خبيث السيرة .
* مسامحة أهل الاستئثار والاستغناء ، والتغافل لهم ، ليس مروءة ولا فضيلةً ، بل هو مهانة وضعف ، وتضرية لهم على التمادى على ذلك الخلق المذموم ، وتغبيط لهم به ، وعون على ذلك الفعل السوء ، وإنما تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف ، والمبادرين إلى المسامحة والإيثار فهؤلاء فرض على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك ، لا سيما إن كانت حاجتهم أمسُّ ، وضرورتهم أشدُّ .
* من ردّدت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها ، وأردت ابتداءه بقضائها فلا تعمل له إلاّ ما يريد هو – لا ما تريد . أنت–وإلا فامسك ، فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً ، ومستحقاً للّوم منه ومن غيره لا للشكر ، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة .

* لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه ، ولا ينتفع بمعرفته ، فهذا فعل الأراذل ، ولا تكتمه ما يستضر بجهله فهذا فعل أهل الشر .

* لا يسرك أن تمدح بما ليس فيك ، بل ليعظم غمّك بذلك ، لأنه نَقْصَكَ ينبّه الناس عليه ويسمع إياه وسخرية منك وهزء بك ، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل ، ولا تأس إن ذممت بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك ينبه الناس عليه ، لكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح ، وسواء مدحت به أو لم تمدح ، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم ، وسواء ذممت به أو لم تذم .

* من سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا ، لا سيما إن كان القائل سليط اللسان أو دافع معرة عن نفسه يريد أن يكثر أمثاله فى الناس . وهذا كثير موجود ، وبالجملة فلا تحدث الناس إلا بالحق . فإن سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم أن أصل ذلك القول شائع ، وليس راجعاً إلى قول إنسان واحد ، فليخبره بذلك بينه وبيْنه فى رفق . وليقل له حصن منزلك وثقف أهلك ، واجتنب أمر كذا ، وتحفظ من وجه كذا ، فإن قبل المنصوح وتحرّز ، فحظ نفسه أصاب ، وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالى أمسك ولم يعاوده بكلمة ، واستمر على صداقته ، فليس فى عدم تصديقه قوله ما يوجب قطيعته ، فإن اطلع حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل ما وقف هو عليه من الحقيقة ففرض عليه أن يخبره بذلك وأن يوقفه على الجليّة ، فغير مسلكه فليستمر فى صحبته وإن رآه لا يغيّر ، فليجتنبه ، ودخول رجل مستتر فى منزل المرء دليل سوء لا يحتاج إلى غيره ، ودخول المرأة فى منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضا ، وطلب دليل أكثر من هذين سخف ، وواجب أن يتجنب مثل هذه المرأة ، وفراقها على كل حال ، ومسكها لا يبعد عن الديانة .

* الناس فى بعض أخلاقهم على سبع مراتب : فطائفة تمدح فى الوجه وتذم فى المغيب ،

وهذه صفة أهل النفاق والعيّابين ، وهذا خلق فاش فى الناس ، غالب عليهم ، وطائفة تذم فى المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيّابين ، وطائفة تمدح فى الوجه والمغيب ، وهذه صفة أهل الملق والطمع ، وطائفة تذم فى المشهد وتمدح فى المغيب ، وهذه صفة السخف ؛ وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهد ويثنون بالخير فى المغيب أو يمسكون عن الذم ، وأما العيابون البراء من النفاق والقحّة فيمسكون فى المشهد ويذمون فى المغيب ، وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم فى المشهد والمغيب ، ومن كل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا .

* إذا نصحت ففى الخلاء وبكلام لين ولا تسند سبّ من تحدثه إلى غيرك فتكون تماماً .

الصداقة عند الغزالى :

يختلف الغزالى عمن سبقوه ممن كتب فى الأخلاق فى تاريخ الفكر العربى ، فمعظمهم اعتمد أساساً على الفلسفة اليونانية لا سيما آثار أرسطو وأفلاطون « والذى دوّن علم الأخلاق وفنه وفلسفته على الروح الإسلامى والمبادئ القرآنية أولا وآخراً كان إمامنا الغزالى ، وفى كتابيه « إحياء علوم الدين » بالعربية « وكيمياء سعادت » بالفارسية ملأ الفراغ الذى كان فى أخلاق اليونان .

ولئن كان أمثال أدب الدنيا والدين للماوردى له صبغة دينية إسلامية إلا أن نزعته الأدبية أقوى مما فيه من فلسفة أخلاقية(١) .

من هنا كان الفرق بين تفكير الغزالى وتفكير من سبقوه ، فهم فى تأثرهم بأرسطو

---

(١) صلاح الدين السلجوقى : أثر الإمام الغزالى فى الأخلاق ، من كتاب أبو حامد الغزالى فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، المجلس الأعلى للفنون ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧٩ .

إنما يتأثرون بفيلسوف – رغم إسلامهم – كان إلهة إما آلهة لا يرتفع عرشها عن قمة الأولب وإما إله وضع فى منطقة بعيدة باعتباره علة الوجود الكائنة وليس إلها خالقاً رحيما جباراً نخاف منه ونطمع ونصلى له ونركع .

ونستطيع أن نضرب مثلاً لهذا الفرق فى التفكير ، فعند بحث موضوع زلأت الصديق هل نعفو عنها أم نقاطعه بسببها ، نجد أن الغزالى هو الوحيد الذى يفرق بين نوعين من أخطاء الصديق : إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية ، وهذه فيها رأى يرى مقاطعة الصديق ورأى يرى أخذه بالرفق . وإما أن تكون تقصيراً فى حق الأخوّة وهذه لا جدال فى العفو عنها .

أقسام الصحبة :

تنقسم الصحبة إلى :

ما يقع بالاتفاق ؛ كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع فى المكتب ، أو فى المدرسة ، أو فى السوق ، أو على باب السلطان ، أو فى الأسفار .

وينشأ اختياراً ويقصد ، وهذا هو موضوع هذا الباب إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ، ولا ترغيب إلا فيها . والصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه .

أنواع المحبة :

والذى يحب إما :

أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه .

وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود .

أما القسم الأول :

فإما أن يكون ذلك الحب للصورة الظاهرية أى حسن الخلقة .

وإما أن يكون للصورة الباطنة أى كمال العقل وحسن الأخلاق ، وكمال العقل يتبعه غزارة العلم ، وحسن الأخلاق يتبعه حسن الأفعال .

وإما لمناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة من غير ملاحة فى صورة ولا حسن فى خلق وخلق .

فإنشبيه الشىءينجذب إليه بالطبعْ . والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها وقد عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

ثم يورد الغزالى تعليلاً إسلامياً – شبيهاً بالتعليل اليونانى – ولكنه يعتبره مجرد كناية وليس حقيقة إذ يقول : وقد كنى بعض العلماء عن هذا أن الله تعالى خلق الأرواح فقلق بعضها فلقاً وأطافها حول العرش ، فأى روحين من فلقين تعارفا هناك فالتقيا تواصلا فى الدنيا .

وهكذا يتضح أن الإنسان قد يحبّ لذاته لا لفائدة تنال منه ، ويدخل فى هذا القسم حب الجمال إذا لم يكن المقصود منه قضاء الشهوة ، وهذا الحبّ لا يدخل فيه الحب لله ، وهو حب مباح لا يوصف بحمدٍ ولا ذم . إذ الحبّ إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمد ولا يذم .

أما القسم الثانى :

وهو أن يحب للتوصل به إلى مقصود ، فإن ذلك المقصود .

إما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها .

وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة .

وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى .

وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة ، ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب . ولذلك أحب الناس الذهب والفضة ، ولا غرض فيهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنها وسيلة إلى المحبوبات . فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث أنه وسيلة إلى المقصود ، إذ يتوصل به إلى نيل جاهٍ ، أو مالٍ ، أو علمٍ . كما يحب الرجل سلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده ، وتمهيدهم أمره فى قلبه .

والوسيلة هنا تكتسب الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه ، فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها . فإن كان يقصد بها التوصّل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران ، وحيازة أموال اليتامى ، وظلم الرعاة بولاية القضاء ، أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح فهو مباح .

وقد يكون الحب متعلقاً بالآخرة ، كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوسل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل للفوز فى الآخرة ، وهذا من جملة المحبين فى الله .

ثم هناك حب الإنسان الله وفى الله ، لا لينال منه علماً ولا عملاً أو يتوسل به إلى أمرٍ وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو أدقها وأغنمها . وهذا القسم أيضاً ممكن ، فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعيد . فمن أحب إنساناً حباً شديداً أحب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه .. والمقصود أن حب الله إذا قوى آثر حبّ كل من يقوم بحق عبادة الله فى علم أو عملٍ ، وأثمر حبّ كل من فيه صفة مرضية عند الله .. ولو كان الحبّ مقصوراً على حظ ينال من المحبوب فى الحال أو المآل لما تصور حبّ الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين

بل من الأنبياء المنقرضين .. ومن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواء فلا يمسك لنفسه شيئاً ..

وكل من يحبّ فى الله لا بد أن يبغض فى الله ، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله محبوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص و ممقوت عند الله.. وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصى فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان .. فأقول ذلك غير متناقض فى حق الله تعالى ، كما لا يتناقض فى الحظوظ البشرية ، فإنه مهما اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها ، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه . فمن له زوجة حسناء فاجرة ، أو ولد ذكى خدوم ، لكنه فاسق ، فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه .. فمن وافقك على غرض وخالفك فى آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال ، وبين الإقبال والإعراض ، وبين التودّد إليه والتوحّش عنه . ولا تبالغ فى إكرامه مبالغتك فى إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ولا تبالغ فى إهانته مبالغتك فى إهانة من خالفك فى جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية وتارة إلى طرف المجاملة عند غلبة الموافقة ..